مجلة أبعاد
ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X
مجلد 07 (عدد 02) – 31 ديسمبر 2020

اشتغال الهيمنة في الحقل الاجتماعي

Dominance in the social field

علوشن جميلة[1]*
alloucheeva@yahoo.com
[1] قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر

****

تاريخ الإرسال: 2020/04/03 | تاريخ القبول: 2020/05/24 | تاريخ النشر: 2020/12/31

ملخص:
يعتبر "نيتشه" أوّل من هيّأ الأرضية لفكرة النّسبية في كلّ المجالات وقد سار على خطاه مفكّرو ما بعد الحداثة نذكر منهم العالم الاجتماعي والفيلسوف الفرنسي " بيير بورديو" الذي استطاع وضع نظريّة لتفسير هذه الظّاهرة وغيرها من الظواهر، يعود تركيزنا على "بورديو" كونه أوّل من وظّف مفاهيم كمفهوم الهيمنة، والرّسمال بأنواعه، والعنف الرّمزي، والهابتوس وغيرها من المفاهيم التي تمكّننا على حدّ تعبيره من فهم الواقع الاجتماعي، وهذا ما سنعمل على شرحه في بحثنا من خلال ترصّد طريقة اشتغال هذه المفاهيم في مختلف الحقول الاجتماعية، كذلك لنرى الجديد الذي تقترحه نظرية "بورديو" وكيف ستقوم بتقويض نظرية البنيوية على الرغم من كون هذه الأخيرة مهد ولادتها.

الكلمات المفتاحية: الصراع؛ الهابتوس؛ الرّأسمال؛ الهيمنة؛ الحقيقة

Abstract: Nietzsche is the first to prepare the ground for the idea of relativity in all areas. Post-modern thinkers followed in his footsteps, including the social scientist and French philosopher Pierre Bourdieu, who was able to develop a theory to explain this phenomenon and other phenomena. Our focus is on Purdue being the first to employ concepts such as the concept of domination, capital in its various forms, symbolic violence, haptus and other concepts that, as he put it, enable us to understand social reality. This is what we will explain in our research by observing the way these concepts work in various social fields, as well as to see what is proposed by the " Bourdieu " theory and how it will undermine the theory of structuralism, despite the fact that the latter is the birthplace of its birth.

Keywords: Conflict; Haptus; Capital; Domination; Truth

* المؤلف المرسل

تقديم:

يقول " بيير بورديو"* في حديث صحفي: " ما أعمل عليه، هو ما تخلّى عنه الآخرون، لأنّ الأمر لا يهمّهم، أو لأنّهم لا يملكون الأدوات النّظريّة لهذه الأشياء، رأس المال الثقافي، ورأس المال الاجتماعي."[1] يتبيّن من خلال هذا الكلام- قبل أن نتعرّض لنظريّة بورديو- أنّه حاول تكملة عمل الذين سبقوه سواء كانوا فلاسفة، أو علماء علم الاجتماع. نذكّر فقط أنّ هناك من يجزم انتماء نظريّته إلى البنيويّة التي تنكر إنكارا تامّا وجود الكائنات البشريّة إلى حدّ رؤية الفرد ليس أكثر من شكل غير مستقرّ، قابل للاستبدال، ضمن نظام لا روح فيه[2] سنرى مدى صحّة هذا القول في البحث، والأدوات المنهجيّة التي تُضيفها نظريّته إلى النّقد الثّقافي أثناء حديثه عن السّيطرة في العالم الاجتماعي في مختلف مجالاته (حقوله) المُنتجة لخطاباتها الخاصّة الحاملة لمعايير يجب الالتزام بها التي تتستّر خلفها علاقات هيمنة وصراع.

1. الحقل فضاء صراع:

يتكوّن **العالم الاجتماعي**– حسب بورديو- من عدد كبير من **العوالم الصّغرى**، إنّها **الحقول** النّاتجة عن سيرورة تمايزات طويلة، حيث يملك كلّ واحد **رِهانات**، **ومواضع**، **ومصالح خاصّة**، **نجد** منها (الحقل الأدبي، والعلمي والمُقاولاتي، والدّيني، والصّحفي، وغيرها) فأقسام الفضاءات هاته مستقلّة نسبيّا أي حُرّة في إقامة قواعدها الخاصّة ومُنفلتة من التّبعيّة لغيرها من الحقول الاجتماعية، ما عدا بعض الحالات مثل المقاييس الاقتصادية أو السّياسية للحقول الجامعية أو العلميّة.[3] وحالما يوجد فضاء اجتماعي، يوجد **صراع من أجل الهيمنة**، **وقطب مهيمن**، **وقطب مهيمن عليه**، وعندئذ توجد **حقائق متعارضة**، ومهما فعلنا- يضيف بورديو- الحقيقة متضادّة إذا كان ثمّة حقيقة **فالحقيقة هي رِهان صراع**،[4] يعنى بذلك أنّ كلّ حقل فيه مجموعة من

*فيلسوف وأنثروبولوجي، وعالم اجتماعي فرنسي (1930-2002) مهتمّ بالمصطلحات والمفاهيم الثّقافية، والاجتماعيّة والعنف الرّمزي.

[1] بيير بورديو، مسائل في علم الاجتماع، ترجمة: هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للسّياحة والثقافة "كلمة"، أبو ظبي، 2011، ص90.

[2] ينظر: جون ستروك، البنيوية وما بعدها: من ليفي شتراوس إلى دريدا، ترجمة: محمد عصفور، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب الكويت، 1996، ص18.

[3] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ترجمة: الزهرة إبراهيم، الشركة الجزائرية السّورية للنشر والتوزيع (دار الناية، دمشق و دار الدزاير، الجزائر)، الطبعة الأولى، 2013، ص147.

[4] بيير بورديو، مسائل في علم الاجتماع، ص152.

الحقائق المتضادّة،مثل تضادّ مواقع أصحابها ممّا يجعل منها رِهان صراع بين هؤلاء، يريد كلّ واحد أن يفرض وجهة نظره كحقيقة ولعلّ عبارة " **إذا كان ثمة حقيقة"** تدلّ على شكّ "بورديو" من وجود حقيقة مُطلقة، بما أنّها في الأخير مجرّد وِجهة نظر سواء كان عند المهيمن أو المهيمن عليه، ففي الصّراع يمكن أن تنقلب الموازن، فكلّما تغيّرت المواقع بالنّسبة للطّرفين، تغيّرت وجهة النّظر المفروضة في الحقل وهكذا. تتطابق – في اعتقادنا- عمليّة الشّك عند "بورديو" في الحقيقة مع فكرة "نيتشه" التي تقول أنّ **جوهر الحقيقة ليس في كون شيء ما من الأشياء حقّا، وإنّما هو أن يعتقد الإنسان أنّه حقّ فالمنفعة هو المعيار الفاضل** في كون الأشياء حقّا أو غير حقّ، **فليس هناك** إذا **"حقّ" في ذاته** أو **"خطأ" في ذاته"**،[1] وهذا هو سبب ربط " بورديو" فُرص المشاركة في عمليّة إنتاج الحقيقة بالموقع المُحتلّ من طرف الفاعل التي يرجعها إلى عاملين هما: **الفائدة في معرفة الحقيقة، والتّعريف بها، أو إخفاؤها عن الآخرين، وعن أنفسنا، والقدرة على إنتاجها.**[2]

فلمّا ترتبط تلك الحقيقة بمصلحة المهيمن، يعمل في هذه الحالة على التّعريف بها كونها تساهم في استمراريّة سيطرته ولكن، يمكن أن تشتغل تلك الحقيقة ضدّ مصلحته ففي هذه الحالة يعمل على إخفائها، كونها تعمل لمصلحة المهيمن عليه الذي يتّخذها أدواتا ثورية من أجل إنقاص قيمة الرّأسمال الرّمزي الذي يملكه المهيمن، مثلا اكتشاف المهيمن عليه الطّرق المُلتوية التي وصل المهيمن عبرها إلى موقع الهيمنة، مثل بعض التّجاوزات وغيرها يعتمد كلّ ذلك على الموقع الذي يحتلّه الفاعل، أو لمّا يعمل المهيمن على ترديد بعض الشّعارات التي تخدم مصالحه مُدّعيا أنّها تخدم المهيمن عليه وذلك عن طريق عملية التّلاعب.

تتوافق بنية الحقل مع **حالة صراع بين الفاعلين** أو **المؤسّسات من أجل موقع السّيطرة** في الحقل- بواسطة العنف الشّرعي الخاص لذلك الحقل- من خلال **الاحتفاظ**

---

[1] عبد الرحمن بدوي، خلاصة الفكر الأوربي: سلسلة الفلاسفة (نيتشه)، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الخامسة 1975، ص232-233 .

*يربط بورديو الحقيقة مع المنفعة الفرديّة، أمّا نيتشه فيربطها أكثر بإرادة القوّة، فيما تراه مُحقّقا لأغراضها، وما تراه الحياة / إرادة القوّة متّفقا مع غاياتها نحو التّعالي، والسّيطرة. يُهمل نيتشه الإنسان كفرد كونه نتاج إرادة القوّة.

[2] بيير بورديو، مسائل في علم الاجتماع ، ص34.

أو**تغيير** تقسيم الرّأسمال الخاص به (شهادة، معرفة أسلوب عيش، مال، علاقات، مكتسبات مِهنيّة، مقدرة بلاغيّة، أصل اجتماعي، تقديم الذّات، إلى ما ذلك من رأسمال يحظى بقيمة في الحقل).[1] يدفع الدّاخل إلى الحقل- كما يقول علي الحرب- **ضريبة الدّخول** حتّى يُقبل **ولينحرط في اللّعبة** إمّا **بحسب القوانين السّائدة**، أو **بابتداع إمكانيات جديدة** تتغيّر معها تشكيلة الأسعار السّائدة للسّلع* المتداولة داخل الحقل، وتتألّف الضّريبة من وجهين هما:

***الإعتراف بقوانين الحقل**، والحفاظ على مصالحه، ليحقّق بذلك الفاعل المدافع عن تلك القوانين **فائدة إضافيّة**، فيرى بذلك نفسه كما يرى إليه الآخرون، مجرّدا من المنفعة الذّاتية لمصلحة الحقل.

*أمّا **المعرفة** فهي الإحاطة بكلّ ما يصنع تاريخ الحقل من المشكلات والصّراعات ونظام الإمكانيات، فضلا عن المعرفة العمليّة بمبادئ اللعبة وكيفية اشتغالها.[2]

نفهم من قول "علي الحرب" أمرين، الأوّل، أنّ هناك مصلحتين، ترتبط الأولى بالمصلحة الذّاتية، تتعلّق الثانية بمصلحة الحقل – يمكن اعتبارها الجانب الموضوعي المقابل للذاتي- فهو يعزل الأولى عن الثانية ولكن لمّا نعود إلى "بورديو" نجده يؤكّد على **تطابق المصلحتين**، بتعبير آخر، مصلحة الحقل هي مصلحة المهيمن والدّليل قوله أنّه في الممارسة اليوميّة، يستمرّ **الصّراع بين الموضوعاتيّة والذّاتانيّة** حيث يسعى كلّ شخص إلى **فرض صورته الذّاتانيّة على أنّها موضوعيّة**.[3] يتعلّق الأمر الثاني، بفصله مرّة أخرى بين المعرفة المرتبطة بالحقل كمعرفة موضوعية، وبين المعرفة العمليّة بمبادئ لعبة الحقل، في حين أنّه نجد – عند بورديو دائما- تلك المعرفة مستدمجة في الحسّ العملي للفاعل أي واحدة من حيث وظيفتها النفعيّة بالنّسبة للذّاتانيّة يتبيّن ذلك في إشارته لكون البنيات الإدراكيّة ليست أشكالا للوعي، بل استعدادات للجسد.[4]

---

[1] Voir: Pierre Bourdieu, question de sociologie, collection le sens pratique, édition de Minuit, Paris, 1980, p113-114.

*أي قيمة الرّأسمال بمختلف أنواعه يوظّفها الفرد كأدوات صراع في الحقل لتحقيق فوائد (مصالح) .

[2] ينظر: علي الحرب، أصنام النّظرية وأطياف الحرية: نقد بورديو وتشومسكي، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الأولى، 2001، ص 32.

[3] ينظر: بيير بورديو، مسائل في علم الاجتماع، ص 151.

[4] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص190.

وينتج عن **اعتراف** الفاعل **برهانات الحقل**، **وبحدوده** التي لا ينبغي تجاوزها كي لا يتعرّض للإقصاء من اللّعبة **اقتصار الثّورات الجزئيّة** للحقل على **تقويض التّراتبيّة**، لكن **ليس على تقويض اللّعبة** نفسها.[1] هذا هو سبب استمراريّة تواجد الحقل الذي لا يُختزل إلى مجرّد مواقع يشغلها فاعلون في صراع دائم، إذ تكمن **إحدى سماته المهمّة** في أنّها **تضمّ ما لا يخطر على بال** أيْ أشياء لا تناقش حتّى، فهناك **الأرثذوكسيّة** (السّلوك التّقليدي) والبدع وهناك أيضا، **المُهمل** أي **مجمل ما هو مُتعارف عليه** أو **ما يبدو بديهيّا**، وكذلك **أنظمة التّصنيفات** التي تحدّد ما هو مهمّ وما هو غير مهمّ وما لا يَعتقد أحد أنّ من المهمّ الحديث عنه بسبب عدم وجود طلب.[2] نجد في أنظمة التّصنيفات على سبيل المثال، إنسان **شجاع / جبان، ذكيّ / غبيّ**، فتاة **جميلة / قبيحة، خيّر/ شرّير، مثقّف/ فلاّح، قويّ/ ضعيف، مدير/ عون أمن، شريف / حقير** وغيرها من التّصنيفات التي تشكّل هُويّة شخص أو شيء، مثلا قولنا عن منتوج معيّن أنّه من النّوع **الجيّد** / أو من النوع **الرّديء** وهكذا.

فلمّا يختزل "بورديو" العالم الاجتماعي في مجموعة من الفضاءات محدّدا مكوّناتها الدّيناميكية (فاعل، مواقع رأسمال بأنواعه، هابتوس المشكّلة لبنية الحقل) هو بذلك **يجعل من سريع الزّوال أقلّ سرعة.**[3] كون الحقل هو لحظة مُميّزة بعلاقات القوّة – كما يقول كلّ من شوفيري وشوفالييه- النّاتجة عن الصّراعات الأهليّة التي هي ثمرة مختلف الإستراتيجيّات المُعبّأة من طرف الفاعلين والموقع الذي تمنحه هذه الأخيرة، أو لمحاولة تدمير النّظام القائم (الدّوكسا) أي الرّأي المشترك للحقل من أجل تغيير تنظيم الرّأسمال المحَدّد للحقل،[4] فهي نوع من الوقفة في زمن معيّن من خلال رصد صراع الفاعلين الذين يشغلون مواقع معيّنة حسب كمّية، ونوعية الرّأسمال الذي يمتلكونه.

ينتقد "ألان كايي" (Alain Caillé) اختزال " بورديو" العالم الاجتماعي إلى مواقع صراع وتنافس بين الفاعلين يستجيب لمعيار المصلحة لأنّ ذلك يؤدّي إلى تجاهل علاقات أخرى

[1] ينظر: بيير بورديو، مسائل في علم الاجتماع ص325.
[2] المرجع نفسه، ص 134.
[3] ينظر: سايمون ديورنغ، الدّراسات الثّقافيّة: مقدّمة نقديّة، ترجمة: ممدوح يوسف عمران، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب الكويت، 2015، ص109.
[4] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص149.

تجمع بين الفاعلين، كالصّداقة، والحب. كما بالغ "بورديو" لمّا جعل من الأسرة حقلا تحرّكه صراعات دافعها المصلحة لأنّ الفاعل لا يختار الدّخول إليها من أجل ممارسة وظيفة مثلا، الأب أو الأمّ وغيرها لأنّ للعائلة منطقا مُميّزا، تحكمها علاقات ترابط وليس علاقات تبادل مستقرّة نسبيّا مع مرور الوقت.[1] يبدو لنا من الوهلة الأولى أنّ نقد " كايي" معقول " لكن، إذا نظرنا من وجهة نظر مغايرة – كمنحازين لوجهة نظر " بورديو"- على أساس أنّ الفرد قبل الزّواج يختار زوجته على أساس نفعي، مثلا زواجه من فتاة غنيّة أو عاملة، أو يختار أجمل فتايات القرية، هي أيضا، نوع من الإستراتيجية لتنمية رأسماله الرّمزي كما تكون هناك صراعات بين الزّوجين لاحتلال موقع المهيمن، فيحرص الزّوج على أن تُطيع زوجته أوامره مُدّعيا أنّه واجب من واجباتها، كما تعمل الزّوجة على فرض هيمنتها وإن كانت لا تُعلن عنها في غالب الأحيان لمّا تملك رأسمال رمزي أكبر من رأسمال زوجها (شهادة جامعيّة عالية أو إذا كان زوجها عاملا عند والدها، أو تمتلك أموالا ورثتها عن عائلتها) تكون الزّوجة في هذه الحالة في موقع هيمنة تتصرّف بحرّية أكثر في غالب الأحيان، ولمّا يرفض المهيمن عليه (الزّوج) هذا الوضع يعمل بكلّ ما في وسعه على تقويض التّراتبيّة من خلال العمل على إنقاص قيمة رأسمال زوجته لأنّه سيستغلّ نقاط ضعفها، سواء في طريقة إنجاز أعمال البيت أو طريقة تربيّة أولادها لضربها أو شتمها، وفي حالة عدم تحقيقه ذلك سيوظّف الورقة الرّابحة الأخيرة وهي الطّلاق للتّخلّص من هيمنتها تماما ويحرص لمّا يعيد الزّواج من أخرى أن لا يرتكب الأخطاء نفسها مثلا، اختياره لفتاة أصغر منه لتسهل السّيطرة عليها أو تحمل شهادة أقلّ من شهادته أي كلّ ما يضعه في موقع مهيمن.

يحدث الشّيء نفسه في العائلة الكبيرة حيث يحتلّ الإخوة والأخوات مواقع متمايزة، يكون الأكبر منهم المهيمن بالخصوص إذا كان يملك شهادة تؤهّله في نظر الأبوان إلى أن يكون المتصرّف الوحيد في أموال العائلة، تظهر المنافسة في هذه الحالة على شكل الشّعور بالغيرة عند الآخرين الذين يتحالفون ضدّ المهيمن (الأخ) مثلا، رفع قضيّة لانتزاع حقوقهم منه (إذا كانوا متزوّجين) يحدث الشّيء نفسه عند الأخوات، غيرة الفتاة الكبرى على أختها الصّغرى كونها تملك رأسمال رمزي أكبر منها (أكثر شبابا، أجمل منها أو لها

[1] Voir: Patrice Bonnewitz, Pierre Bourdieu, vie, œuvres, concepts, 2ème édition, Ellipses ,Paris 2002, p86

شهادة جامعيّة..) الذي يُحقّق للفتاة الصّغرى منفعة في الوسط الاجتماعي كفرصة الزّواج قبلها من رجل غنيّ أو ميسور الحال، يمكن حدوث العكس بحيث تغار الصّغرى من الكبرى لأنّها تملك الرّأسمال الرّمزي نفسه، لكن أكبر منه بقليل لأنّه يجعل من الكبرى المهيمن، ونجد من بين ثورات المهيمن عليه (الأخت الصّغرى) لا تكون مقرّبة إليها (عدم الكلام معها...). يدلّ ما سبق صحّة إمكانيّة جعل الأسرة حقل صراع وإن كان هناك بعض الاستثناءات.

2. الهابتوس محرّك الصّراع:

ليضمن الفاعل انتسابه للحقل أو لكي يُعترف به، يجب أن يتوفّر على **الهابتوس(Habitus)** المناسب مع الحقل الذي ينتمي إليه، وهو **نسق الاستعدادات** التي **ينشأ عليها الفرد ويكتسبها** المتعلّقة بأربعة مستويات: **العرفاني والخلقي، وهيئة الجسد، والجمالي**. تشتغل هذه الاستعدادات وِفق آليات معقّدة داخليّة تكوّن حدود النّسق وتشكّله، أي إنشاءه الذّاتي في استقلاليّة عن محيطه يَخرج للنّاس ممارسات تعبّر عن الهُويّة الاجتماعيّة لصاحبها[1] يشرح (Ficher) " فيشر" هذه المستويات كالتالي، **وجدانية** فكلّ الاستعدادات تحمل شحنة عاطفية سلبية أو إيجابية تجاه الأشياء، و**معرفية** المرتبطة بكلّ الأفكار والمعتقدات تجاه الموضوع في الواقع الاجتماعي، و**الدّوافع وراء السلوك أو المقصد.**[2] نلاحظ من خلال ما قدّمه "فيشر" تركيزه على الجانب النّفسي والفكري متناسيا الأهمّ، هو الجانب الجسدي الذي يعتبر المفتاح عند "بورديو"، فكلّ الجوانب المذكورة سابقا مستدمجة داخل الجسد تشتغل في الوقت نفسه مدفوعة بواسطة الدّافع (المصلحة).

تُوجِّه تلك **الاستعدادات السّلوك الذي يؤدّيه الفاعل،**[3] كما تؤثّر في **طريقة التأويل لوضعية ما،**[4] فهو ليس فقط **مبدأ توليدي** للإستجابات المتوافقة بدرجة أو بأخرى مع مطالب مجال ما أي نتاج فردي لكنّه أيضا، ومن خلال الخبرات التّكوينيّة للطّفولة، هو

[1] ينظر: بيير بورديو، جان كلود باسرون، إعادة الإنتاج، ترجمة: ماهر تريمش، المنظّمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2007 ص387.

[2] Voir: Gustave Nicholas Ficher, la psychologie sociale, édition le Seuil, Paris, 1997, p61.

[3] Voir: Pierre Bourdieu, langage et pouvoir symbolique, édition le Seuil, Paris, 2001 p24.

[4] Voir: Pierre Burnbaum, François Chazel, théorie sociologique, presse universitaire de France, Paris, 1ér édition, 1975, p51.

نتاج لمجمل التّاريخي الجمعي للعائلة والطّبقة، وبالأخص من خلال الخبرات التي تعبّر عن منحنى مسار سلالة كاملة بوصفه عفويّة توليديّة، تفرض نفسها في مواجهة مرتجلة مع مواقف دائمة التّجدّد، فإنّه **يطبعُ منطقا عمليّا هو منطق الغموض، منطق التّقريب،** الذي يحدّد علاقة المرء المعتادة مع العالم.[1]

يشير "بورديو" هنا إلى نقطة هامّة في نظريّة الهابتوس، كون ذلك النّسق من الاستعدادات غير متكوّن صدفة، **بل هو نتاج تاريخي لممارسات فردية الذي يصبح مشتركا في الجماعة نفسها المطابق لترسيمات إدراك وتفكير وفعل، وُجدت تاريخيا المؤبّدة للتجارب الماضية.**[2] تستدعي كلّ وضعية ممارسة مناسبة بفضل الاستعدادات، فبمرور الوقت وبسبب عملية التّحيين، **تكون استقلالية الممارسة عن الوضعية، كونها ناتجة عن علاقة جدلية سابقة بين الوضعية والهابتوس.**[3] قبل أن نستشهد بمثال عن كيفيّة تكوّن الهابتوس عبر التّاريخ، يجدر بنا الإشارة إلى ملاحظة وجّهها كلّ من "شوفالييه و شوفيري" عن تمثيل" بورديو" للهابتوس **كمبدأ توليدي** في قوله أنّه **يمكن تعريف الهابتوس بقياس مع النّحو التّوليدي** عند " تشومسكي"، **كنسق أنظمة مُستبطنة تسمح بتوليد** كلّ **الأفكار**، وكلّ **الإدراكات**، وكلّ **الأعمال الخاصّة بثقافة ما** . يُؤاخذُ "شوفيري" و"شوفالييه" "بورديو" تشبيهه للهابتوس بالمبدأ التّوليدي للّغة عند " تشومسكي" بقولهما أنّه لو **فسّرنا الإبداع اللامحدود للمتكلّم** فإنّ ترتيبة "تشومسكي" هي ذات **طبيعة آليّة** فلا يمكن قطّ أن تكون مقارنة مع نظيرتها عند "بورديو" الذي لا يريد ترجمة آليّة للاستعدادات.[4] كون هذا **المجموع النّسقي من مبادئ بسيطة يمكن استبدالها جزئيّا**، التي انطلاقا منها يمكن **اختراع عدد غير محدود من الحلول** .[5]

وبالرّغم من كون الهابتوس– يضيف الباحثان- **قالبا** للأفعال، والتّمثّلات، إلاّ أنّ **تخطيطيّة الممارسات** التي هي **في صلب القالب المنطقي، هي تخطيطيّة محدودة، ومَرنة، تسمح بتوليد ممارسات بمحتوى متنوّع** إلى أبعد حدّ، وهكذا تنكشف إمكانيّة تغيير الذّات موضعها إلى سياقات متعدّدة. فليست **استعدادات الهابتوس مَرِنة إلى حدّ ما**

---

[1] ينظر: بيير بورديو، بعبارة أخرى، ترجمة: أحمد حسّان، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، الطبعة الأولى، 2002، ص 133- 155.

[2] Voir: Pierre Bourdieu, le sens pratique, les éditions de minuit, Paris, 1980 p91.

[3] Voir: Pierre Bourdieu, esquisse d'une théorie de la pratique, édition le Seuil, Paris, 2000, p 261.

[4] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص123.

[5] Voir: Pierre Bourdieu, question de sociologie, p135.

فحسب ومُطابقة لميولات يمكن أن تكون قويّة أو ضعيفة تؤثّر دون استلزام، ولكنّها ليست هي ذاتها **مُتعذّرٌ** مسّها، **وغير قابلة للتّبدّل وتتوقّف على الشّروط التي تُفعَّلُ فيها.** [1] يلمّحان إلى فكرة كون "بورديو" لم يُوفّق في عمليّة التّمثيل كون الهابتوس فعلا له خاصيّة التّجديد وإن كان بدرجات.

أ. نشأة الهابتوس (المجتمع القبائلي نموذجا):

قام "بورديو" بدراسة ميدانيّة لثقافة المجتمع القبائلي التّقليدي حيث شرح فكرة تكوّن الهابتوس عبر التّاريخ، كدليل على أنّ النّقد الثّقافي يعمل على تعزيز التّجارب الثّقافيّة والاحتفاء بها عبر تحليل هذه الصّيغ وتحليل دعاماتها الاجتماعيّة، وأنّه يتعامل مع الثّقافة كجزء من الحياة اليوميّة.[2] لقد اعتاد الرجل في المجتمع التّقليدي القبائلي على ممارسات تحافظ على استقامة جسده **كالحرث** بالمحراث والحصاد **بالمنجل**، أمّا المرأة فهي مكلّفة بممارسات تجعل من جسدها مُنحنيا **كجمع** الزيتون فطريقة حمل الجسدين مطابقة لترسيمة بارز/ مقوس وترسيمة: فوق/ تحت[3] (المكوّنة للبنية الفكريّة) تتكرّر الممارسات فينشأ الاستعداد لحمل الجسد بالطريقة نفسها في كلّ مكان وزمان، بتعبير آخر، تحوّل طريقة حمل الجسد إلى نوع من البديهيات التي سيُنشأُ عليها الأطفال.

كما يطلق "بورديو" على الهابتوس إسم **"حسّ اللّعبة"** وهو **تجسّد للّعبة الاجتماعيّة** المتحوّلة إلى **طبيعة ثانيّة** تتضمّن تلك الأنساق نماذج لإنتاج الممارسات ونماذج الإدراك وتقييم الممارسات المعبّرة عن الموقع الاجتماعي التي تمّ بناؤها فيه.[4] كما أنّ تكوين نظريّة الهابتوس والحسّ العملي- حسب شوفيري وشوفالييه- هي ردّ فعل لثنائيّة العقلي والميكانيكي: داخل و خارج، عقلي ومادّي، فردي واجتماعي الخ. إنّ الرّؤية العقلانيّة المرتبطة في ثنائيّة الرّوح والجسد العقل والمادّة تنحدر من وجهة نظر شبه تشريحيّة، إذن سكولائيّة، إذ كان يُنظرُ إلى الجسد كآلية بسيطة مختزلة في الجثّة والتّفكيك الآلي أو الجمجمة الذي يتعارض مع الجسد المسكون والمنسي، والممتحن من الدّاخل كانفتاح

[1] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص125.
[2] ينظر: سايمون ديورنغ، الدّراسات الثّقافيّة: مقدّمة نقديّة، ص 15- 16.
[3] ينظر: بيير بورديو، الهيمنة الذّكورية، ترجمة: سليمان القعراني، مراجعة: ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 2009، ص25.
[4] ينظر: بيير بورديو، بعبارة أخرى، ص111-217.

واندفاع، وضغط أو رغبة.[1] يشيران هنا إلى الأفكار التّقليدية المرتبطة بتقسيم الإنسان إلى جسد، وعقل، أو روح وأهمّية هذا الأخير، بالإضافة إلى فكرة كون الجسد مجرد غرائز كقوّة دافعة للجسد، فالهابتوس عملة موحّدة للوجهين.

يمكن– في اعتقادنا- تشبيه الهابتوس المُرسّخ بعمليّة **برمجة الفاعل** فكريّا، وعاطفيّا وجسديّا، لنفهم الفكرة ندعّم ما سبق بمثال بما لاحظناه على الطالبات ذوات البشرة السّوداء اللّواتي يحملن جسدهنّ بطريقة مستقيمة لإبراز مؤخّرتهنّ وصدرهنّ (نذكّر فقط أنّه في بعض البلدان الإفريقيّة كالموزمبيق أوأنغولا وغيرها، نجد من معايير الجمال الموخّرة البارزة..) مقابل الطالبات اللّواتي أتين مثلا، من الأرياف (منطقة القبائل) يحملن جسدهنّ بطريقة منحنيّة، تقويس الكتفين والظّهر وعدم إبراز المؤخّرة هذا عن طريقة حمل الجسد، أمّا عن طريقة الإدراك، نجد مثلا إظهار أجزاء من الجسد (التّنورة القصيرة جدّا، لباس قريب إلى الجسد (moulant) / سيّء، يساوي في ثقافتنا فتاة سيّئة الخُلق، مقابل ما يعنيه في الدّول الغربية (حريّة إظهار الفتاة جمالها/ أو ببساطة هو لباس الأيام الحارّة أو أيام العطلة) هذا عن طريقة إدراك مثلا طرق إظهار الجسد، فالإخفاء يعني الفضيلة، والعفّة (في ثقافتنا) / إظهار الجسد يعني الحرّية، أمّا الإخفاء يعني محدوديّة التّفكير وهكذا.

كما يرافق عملية إظهار الجسد الجانب العاطفي ففي ثقافتنا، تُعلّم الأمّ ابنتها الالتزام بطريقة معيّنة في اظهار جسدها فتُلزمها بتغطية الأجزاء العليا للأرجل (ما فوق الرّكبتين) أو الخصرين كما تعلّمها عدم لباس سروال ملتصق، وكلّما خرقت البنت تلك التّعليمات تُعاقب من طرف الأب أو الأمّ سواء بإهانتها لفظيّا أو زجرها، وضربها في بعض الأحيان من طرف الأخ، لتُرسّخ بذلك مجموعة من الأحاسيس المتعلّقة بطريقة إظهار جسدها (كالخجل والخوف وغيرها) نجد العكس مثلا في المدينة، حيث يتضمّن اللّباس غير المُحتشم عواطف أخرى كالاعتزاز والثّقة بالنفس لأنّ تلك هي موضة العصر.

يدلّ هذا الاختلاف على **تنوّع تمثيلات الفاعلين بتنوعّ مواقعهم** – يقصد هنا "بورديو" البيئة التي تَكوّن فيها الهابتوس (الرّيف/ المدينة، عائلة بسيطة/ عائلة مُثقّفة)- والمصلحة المرتبطة بها النّاتج عن تنوّع **وتمايز** هابتوسهم[2] الذي يوحي إلى **مبدأ التّعدّدية** الذي

[1] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص112.
[2] المرجع السابق، ص217.

يتّسم به فكر ما بعد الحداثة الذي يتحقّق أيضا - على حدّ تعبير "بورديو"- عبر عمليّة **التّمايز** التي بفضلها يُنتج العالم الاجتماعي **تمايز طرق معرفة العالم**، فكلّ حقل يُوافق زاوية نظر أساس حول العالم الذي يخلق موضوعه الخاص، ويجد في نفسه مبدأ فهم وتفسير لهذا الموضوع.[1] يفرض الحقل إذن، **رؤية ما** وتقسيما للعالم لأولئك الذين هم طرف آخذ، ومأخوذ في لَعِبهِ ورهاناته، لينتج عن ذلك كون كلّ حقل هو **تبرير مؤسّساتي لوجهة نظر في الأشياء وفي الهابتوس**[2] أي هو الذي يقرّر الحقيقة من الخطأ والهابتوس المناسب للفاعل المنتمي إليه.

كما يتبيّن هذا البعد التّعدّدي أيضا في العالم الاجتماعي من خلال النّظريّة العامّة للحقول - كما يقول شوفيري وشوفالييه- ليبتعد بذلك "بورديو" عن **النّظريّة الأحاديّة** مثل، الاقتصاديّة أو السّياسيّة مثلا، التي **تفرض رؤية** تحرّفُ موضوعها أو تسعى إلى **إخفاء العنف الرّمزي** الذي تكبّده إيّاها ليرسم العمل الاجتماعي **طوبولوجيا اجتماعيّة**، مُقطّعا أفقيّا العالم الاجتماعي الذي لا يأخذ معناه إلاّ في ضوء بُعده العمودي والتّاريخي (تاريخ كلّ حقل والمواقع التي تؤسّسه، وتكشف هذه الطوبولوجيا التّمايز القويّ للفضاء الاجتماعي الحديث أنّه اندماج عوالم صُغرى مستقلّة[3] أي تحليل العالم الاجتماعي بكلّ أبعاده (التاريخي والآني).

وإذا قُمنا مثلا، بمقارنة بين الحقل الرّياضي* والحقل الفنّي، نجد كلّ واحد وموضوعاته، تشمل موضوعات الحقل الأوّل مختلف الممارسات الرّياضية من ألعاب قوى وألعاب الكرّة (كرّة القدم، والتّنس، وكرة السّلة، والطّائرة إلى ما ذلك) تمارس هذه الأنواع في ملاعب مختلفة الأشكال والأحجام بقوانينها، من طرف رياضيّين يحتلّون مواقع تراتبيّة بحسب كمّية الرّأسمال الرّمزي الذي يمتلكونه والمتحوّل من الرّأسمال الاقتصادي "ميداليات" المُكتسب عبر مسيرتهم الرّياضيّة، ولا ننسى أنّهم مُموَّلين من طرف شركات، فكلّما اكتسب اللاعب ميداليات كلّما حظي بمموّل قويّ بسبب قدراته

[1] Pierre Bourdieu, Méditations pascaliennes, collection « Liber », édition du seuil, 1997, p119.

[2] المرجع نفسه، ص120.

[3] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص151.

*فكرة الحديث عن الحقل الرّياضي موجودة عند "بورديو"، ولكن التّحليل مختلف، الشّيء نفسه بالنّسبة للحقل الفنّي " الموضة" إعتمدتُ في تحليلي على ما نشاهده في القنوات الغربيّة عند المصمّمين وعارضات الأزياء.

المتميّزة، إزداد رأسماله الرّمزي ممّا يضعه في تراتبيّة (في المراتب الأولى) مع اللاعبين الآخرين الأقلّ حظّا، كما أنّ الحقل الرّياضي هو حقل يتعامل مع الأرقام (تحطيم الأرقام القياسيّة عدد الميداليات الذهبيّة ...) يتعامل أيضا، مع تجاوزات اللاعبين (تناول منشّطات أو عدم احترام قوانين لعبة رياضيّة أو إهانة الحَكم..) كلّما تجاوز اللاعب هذه الحدود، أُقصي من الحقل.

يختلف العالم الفنّي - عالم الموضة مثلا- في موضوعاته التي تشمل اللّباس والأحذية وكلّ الأكسيسوارت المرافقة كالحليّ، والحذاء، والحقيبة، والماكياج... يحرّك حقل الموضة مصمّمون وعارضات الأزياء، ومزيّنين...، يتنافس المصمّمون على احتلال مواقع مميّزة في الحقل بحسب قدراتهم على ابتكار أزياء متميّزة التي تُعرض من قِبل عارضات أزياء متمايزة، مثلا، لون البشرة توظيف عارضات من كلّ الأجناس البشريّة، أو عارضات شقروات، وطويلات ونحيفات، ببساطة كلّما كان هناك جديد، بتعبير آخر، يُسمح بتجاوز قوانين ذلك الحقل كخرق المعايير المُخصّصة للعارضات كاستبدال معيار الطّول بمعيار القصر، فعوض الخضوع للطّول المفروض في الحقل (1.80) يكون (1.65) أو استخدام معيار (جسد ممتلىء عوض الجسد النّحيف) وغيرها من الإستراتيجيات لاحتلال موقع متميّز. نلاحظ كيف تباينت اهتمامات حقل الرّياضة، وحقل الموضة بالإضافة إلى ميزة حقل الموضة الذي يُسمح فيه بخرق قوانينه، ورغم اختلافهما في الموضوعات **نجدهما يشتركان في المصلحة** (بمفهومها العام) (اكتساب رأسمال رمزي أكثر قيمة في الحقل) كحمل الأزياء لاسم المصمّم، فكلّما كان مشهورا كلّما كان سعرها مرتفعا في عالم الموضة أو تسمية ملعب أو حركة رياضيّة عُرف بها رياضيّ (الشّهرة) نجد الفكرة نفسها عند "بورديو" حين يؤكّد أنّه رغم **اختلاف المصلحة باختلاف المجالات**، لكن هذه الأخيرة لها خصائص ثابتة:

***كونها مواقع صراع بين المصالح بين الفاعلين، أو المؤسّسات المتمتّعة بشكل غير متكافئ برأسمال نوعي (موارد نوعيّة، أسلحة نوعيّة) للسّيطرة على المجال.**

***أنّ هذه الصّراعات تفترضُ سلفا إجماعا ما هو موضوع الرّهان.**[1] يقصد هنا "بورديو" تباين المصلحة مع اختلاف الحقول كونه يقصد نوع المصلحة.

[1] ينظر: بيير بورديو، بعبارة أخرى، ص187- 188.

3. الرّأسمال الرّمزي رهان الصّراع:

يتحدّد **موقع الفاعل** داخل الحقل – كما رأينا إذن- حسب **كمّية ونوعية الرّأسمال** الذي **يراكمه عبر التاريخ** بفضل عمليّة الاستثمار **المنتقل عن طريق الإرث** – ما عدا الرّأسمال الثّقافي الذي لا يُكتسب، ولا يُورث دون جهد شخصي بحيث يتطلّب وقتا طويلا مستمرّا للتّعلّم والتّثاقف كي يجعله مِلْكا له أو يجعله ذاته-[1] يتطلّب ربّما تعبا أكبر لدى الفرد المنتمي للطّبقة المهيمن عليها- يشير "ديورنغ" بأنّه **يرثُ الأفراد من الطبقة المهيمنة رأسمالا ثقافيا أكثر ممّا يرثه المنتمون إلى الطّبقة المهيمن عليهم**، فيتعلّمون تقييم الثّقافة العليا والقواعد والخطب التي تُشرْعنها إنّهم على وجه الخصوص يكتسبون المهارات لمعرفة المجال الجمالي بوصفه جماليا بدلا من كونه مجرّد تسلية أو إنجاز تقني ويمكن تحويل هذا الرّأسمال الثقافي إلى رأسمال إقتصادي بسُبُل مختلفة، لكنّه مهمٌّ بالنّسبة للمسيطر عليهم الذين يُعوّضون افتقارهم النّسبي إلى المال والمنزلة من خلال اكتسابهم مزيدا نسبيّا من الرّأسمال الثقافي،[2] إذ يمكن لهم الإشتغال فيه فيما بعد إذا توفّرت فيهم المعايير التي تضعها مثلا، المؤسّسة المنشأة من طرف المهيمن. **يوفّر** هذا **الرّأسمال** لصاحبه **فوائد** عديدة إذا عرف طريقة استثماره في الحقل- استغلال الفرص المناسبة - ويمكن التّمييز بين أربعة أنواع من الرّأسمال عند "بونيفيتز"(Patrice Bonnewitz):

***الرّأسمال الاقتصادي**، المتكوّن من العديد من مصادر الإنتاج، كالأرض، والمصانع والعمل، وكلّ أنواع الممتلكات، كالأجور، والميراث، وكلّ الممتلكات المادية (بيت سيارة..).

***الرّأسمال الثقافي** الذي يشمل الكفاءات المهنيّة المنتقلة عبر العملية البيداغوجية التي توفّرها المدرسة أو العائلة. يتوفّر هذا النّوع من الرّأسمال في ثلاثة أشكال، أوّلا، **المدمج في هيئة استعدادات جسديّة** دائمة. ثانيا، في **شكل موضوعي** الذي يشمل الممتلكات الثّقافية، كامتلاك لوحات فنّية كتب وغيرها. ثالثا، في **شكل مؤسّساتي**، المصنّف من طرف المؤسّسات، كلقب أستاذ، محامي مدير، عميد وغيرها من الألقاب. يتعالق الرّأسمال الثّقافي عند "بورديو" كما يقول "ديورنغ" بالأذواق (جملة تفضيلات

[1] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص163.
[2] ينظر: سايمون ديورنغ، الدّراسات الثّقافيّة، ص329- 330.

وتصنيفات، وميول) تبدو طبيعيّة، والتي توجد - كما رأينا- ضمن "المظهر" أو (l'habitus) الذي يجمع بين الظّروف الماديّة للحياة والفروق الطّبقيّة وِفق (العمل، والمال) والعلامات، والممارسات التي من خلالها **تضع المجموعات المختلفة نفسها ضمن هرميّة اجتماعيّة.**[1]

لا يسلّم "ديورنغ " بفكرة **ارتباط الذّوق بالطّبقة**، كما يشكّ في عمل نظريّة "بورديو" خارج الغرب وحجّته في ذلك أنّ هذه الصّلة ليس لها الزّخم نفسه في جميع الدّول، ففي مَسحٍ أُجري بأستراليا لاختبار النّظريّة، تبيّن أنّه في حين أنّ هناك بعض التّفضيلات الثّقافيّة متعلّقة جدّا بالطّبقة (إعطاء دروس على البيانو للأطفال) فإنّ التّرابط بين الطّبقة والذّوق كان أكثر رخاوة ممّا افترضه "بورديو"، بالإضافة إلى استهانته بالدّرجة التي يمكن من خلالها أن تنتقل الأذواق بين المجموعات المختلفة، فبعض الأذواق تبدأ في مجموعات صغيرة ونخبويّة، وتصبح مُجمهرة نسبيّا (انتقال الموسيقى الكلاسيكيّة إلى قوائم البوب).[2] يعني القول، فشل تطبيق نظريّة " بورديو" في أستراليا بعدم اقتصار تعلّم العزف على البيانو عند الأطفال من الطّبقة ذات الذّوق المميّز، ويمكن التّمثيل بما يحدث في مجتمعنا امتلاك منزل فخم مثلا، كعلامة على الانتماء الطّبقي، يمكن أن يمتلكه شخص عادي، لكن ذلك لا يدلّ على أنّه ينتمي إلى الطّبقة ذات الذوق العالي.

***الرأسمال الاجتماعي** الذي يشمل مختلف **العلاقات المؤسّسة بين الأفراد أو المجموعات** عن طريق الحفلات والرّحلات، وغيرها التي تؤسّس لعلاقات صداقة وشراكة بين المنتمين للحقل نفسه،[3] لتحقيق فوائد أكثر من خلال عملية الاستثمار ويمكن اعتبار هذا النّوع من الرّأسمال بمثابة إستراتيجية الفاعل لاستثمار أفضل لرأسماله أيا كان نوعه سواء كان مادي أو ثقافي، ففي الملتقيات المُنظّمة في الجامعات مثلا، يلتقي فيه كلّ الأشخاص الذين يمتلكون رأسمال ثقافي (شهادات: ماجستير، دكتوراه وغيرها) فالحائز على شهادة الدّكتوراه ولم يوظّف بعد، سيحاول تكوين صداقات مع أساتذة يحوزون على رأسمال أكبر، رئيس مخبر مثلا، ليتمكّن من نشر مقال أو كتاب. نجد "علي الحرب" يختزل هذه الأشكال من الرّأسمال السّابقة الذّكر إلى نوعين: **رمزيّة كالمعتقدات**

[1] المرجع نفسه، ص ن.
[2] المرجع نفسه، ص 330.
[3] Voir: Patrice Bonnewitz, Pierre Bourdieu, vie, œuvres, concepts, p72-73.

والمنتوجات الثقافيّة، والألقاب العلميّة. **ماديّة**، كالأموال، والموارد الطّبيعيّة والسّلع الاستهلاكيّة والمنتجات التّقنيّة،[1] وإن كان – حسب رأينا- تصنيف "فيشر" أكثر دقّة.

فكما رأينا إذن، فإنّ **الرّأسمال الإجتماعي يؤمّن** - على حدّ تعبير شوفيري وشوفالييه- **لشخص ما الاعتراف به** وينزع إلى أن يصير نوعا من **المُضاعِف لقوّته** عبر أثر الإدماج الرّمزي وبهذا فإنّ شبكة العلاقات، هي نتاج إستراتيجيات استثمار اجتماعي يُظهرُه الفاعل عن وعي أوّلا، بهدف إلى أن يخلق، ويدعّم، ويصون، ويُنشط ثانية الرّوابط التي يمكنه أن يطمح في أيّ لحظة إلى أن يجلب منها منافع مادية أو رمزيّة، ويُدَعَّم الرّأسمال الاجتماعي بإجراءات مؤسّسيّة (حفلات ساهرة ومدارس منتقاة، وأنشطة رياضيّة من النّوع الرّفيع، والرّالي- سباق السّيارات- وغيرها).[2]

يسعى الرّأسمال الاجتماعي إلى إتاحة التّبادلات الشّرعيّة وإلى إقصاء التّبادلات غير الشّرعيّة بين الفاعلين في الحقل نفسه، فكلّ أنواع الرّأسمال – الاقتصادي، أو الثّقافي أو الاجتماعي- تسعى بدرجات متباينة إلى **الاشتغال كرأسمال رمزي**، عبر الآثار التي يطبعها الرّأسمال في الأشخاص من خلال حصوله على اعتراف ظاهري، أو عملي، المرتبط بالهابتوس المبني حسب البنيات التي تشبه الفضاء الذي تولّد فيه.[3] يعنى هذا أنّ **الرّأسمال بكل أشكاله يشتغل كرأسمال رمزي**، تتوقّف فعّاليّته على هابتوس الفاعل المطابق للفضاء الذي نشأ فيه، المانح لذلك الرّأسمال قيمة.

يمنح الرّأسمال الرّمزي الذي هو بمثابة ثمرة **اعتراف بشرعيّة موقع ذلك الذي يمتلكه**،[4] بتعبير آخر، يوفّر للمهمين السّيطرة فهو **يُؤمّن** – حسب بورديو- **أشكالا من الهيمنة** التي تستلزم التّبعيّة بالنّسبة إلى أولئك الذين يسمحُ الرّأسمال الرّمزي بالسّيطرة عليهم، الذي **يتجسّد في التّقدير والاعتراف، والإيمان، والائتمان، وثقة الآخرين** وغيرها.[5] نلاحظ هنا جعْل "بورديو" كلّ القيم التي لطالما اعتبرها الإنسان جانبا خيّرا منه كالثّقة، والائتمان بالآخرين والصّداقة، والحبّ وغيرها مرتبطة بإستراتيجيّات

[1] ينظر: علي الحرب، أصنام النظرية وأطياف الحرية: نقد بورديو وتشومسكي، ص30.
[2] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص164
[3] Voir: Pierre Bourdieu, le sens pratique, p285.
[4] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص166.
[5] Voir: Pierre Bourdieu, méditations pascaliennes, p200.

الصّراع من أجل السّيطرة، هذا ما فعله "نيتشه" في نقده للأخلاق حيث اعتبرها **لباسا تكسو الرّوح لإخفاء** أو **ستر الدّناءة البشريّة**، أو قناع للحيوان الكاسر الذي يعيش بداخلنا.[1] على الرّغم من اختلافه عن "بورديو"، فالهدف عند "نيتشه" هو القضاء تماما على الأخلاق التي لطالما سعى الإنسان تحقيقها، وتعويضها بأخلاق تعمل على خدمة إرادة القوّة أمّا " بورديو" فهدفه هو كشف السّتار عن حقيقة تلك الأخلاق، وإن كان "نيتشه" الأسبق لذلك من أجل اجتثاث الأخلاق من جذورها- على الرّغم من أنّ ذلك يجعل من الإنسان حيوانا شرسا- تبقى الأخلاق ضروريّة في حياتنا رغم صدورها من النّفاق (مصلحة)- كما أنّ هناك من يتحلّى بها عن قناعة- وهذا ما قام "بورديو" بالكشف عنه.

وقد تجاوز "بورديو" مفهوم الرّأسمال عند "ماركس" المتحدّد في الجانب المادّي، فقد **كان الرّأسمال بالمفهوم الاقتصادي يعني امتلاك ثروات مادية أو مالية** الهامّة في التّكوين الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية إلى حدّ أنّه **يضع بالقوّة الأغنياء مقابل الفقراء**، وعمل "بورديو" على أن يبيّن - حسب " شوفيري وشوفالييه"- أنّ هناك أنواعا أخرى من الرّأسمال تلعب دورا هامّا أيضا في الدّيناميكيّة الاجتماعيّة، وضدّا عن رؤية اقتصاديّة مفرِطة، فإنّ" بورديو" يطرح لهذه الأنواع الأخرى من الرّأسمال التّحليل الماركسي الذي يؤسّس الرّوابط الاجتماعية، والنّزاعات النّاتجة عنها حول حيازة / نزع حيازة الثّروة.[2] لا يدلّ هذا على أنّه استغنى تماما عن الجانب المادّي، بل وسّع من مجالاته، وهذا ما يتبيّن في قول كلّ من "شوفيري وشوفالييه" كون الفلسفة المتبنّاة من طرف " بورديو" هي **فلسفة ماديّة، ومُصارعة فلا يوجد بديل عن المواجهة الرّمزية**، وأكيد– أنّ العالم الاجتماعي يملك سلطة النّذر، والانتزاع من التّصنّع، ومن عدم لزوم الوجود، ومن العبث، ولكن هناك تناقض فكلّ مقدّس له مكمّله المدنّس، وكلّ تميّز يُنتجُ ابتذاله ثمّ أنّ منافسة الوجود الاجتماعي المعروف والمعترف به الذي يُنتج اللامعنى، هو نزاع إلى الأبد من أجل الحياة والموت الرّمزي.[3] يعني ذلك أنّ الواقع الاجتماعي حبيس فلسفة الثّنائيّة التي هي أساس الفكر الإنساني ينتج عن صراع هذه الثّنائية اللامعنى أي

[1] ينظر: فريديك نيتشه، هذا هو الإنسان، ترجمة: علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت، 2006،ص205.
[2] المرجع نفسه، ص 162.
[3] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص 76- 77.

كلّ قطب يدّعي الحقيقة التي هي بمثابة تحقيق الوجود له، هي بدورها بمثابة اللاحقيقة بالنّسبة للطّرف الآخر.

بتعبير آخر، أنّ فكرة **امتلاك العالم الاجتماعي سلطة منح القيمة أو انتزاعها** تبقى **سلطة محدودة**، فلا يستطيع القضاء على سبيل المثال على كلّ المُبتذل أو الجعل من كلّ شيء ذي قيمة لأنّ وجود المقدّس رهين بوجود المبتذل والعكس صحيح، ممّا يجعل من نظريّة " بورديو" حبيسة فكرة الثّنائيّة التي تأسّس عليها فكر الإنسان، بالرّغم من محاولته الإفلات منها عن طريق نظريّة تعدّد الحقول، وتعدّد تمثيلات الفاعلين الذين يحتلّون مواقع تراتبيّة. اِنتُقد "بورديو" بالفكرة نفسها، إذ أعطى فكرة السّيطرة انطباع نظرة أحاديّة انطلاقا من ثنائيّة زوج تصوّري: مُسيطر / مُسيطر عليه مُموّه في تحليله جميع مجالات الحياة، لكنّها عملت على إظهار مدى **ارتباط السّلطة بالمعرفة والعنف بالمعنى، مُبلْبلة بذلك هذه المعطيات**.[1] بتعبير أدقّ، رغم اختزال "بورديو" العالم الاجتماعي في ثنائيّة الغالب والمغلوب لكنّه استطاع الكشف عن مدى تعالق مفاهيم العنف والمعنى والسّيطرة ليمنحها بذلك بعدًا جديدا.

4. العنف الرّمزي:

يتمأسسُ **العنف الرّمزي** بواسطة **الانتساب** الذي لا يستطيع المهيمن عليه إلاّ منحَه للمهيمن أو للهيمنة، وذلك عندما لا يحظى المهيمن عليه لأجل التّفكير في ذلك أو التّفكير بنفسه أو أفضل من ذلك، **التفكير** بعلاقته مع المهيمن إلاّ **بأدوات المعرفة المشتركة بينهما** والتي هي ليست سوى الشّكل المستدمج لعلاقة الهيمنة التي تُظهر هذه على أنّها **طبيعيّة**، أي عندما تكون التّرسيمات التي يستخدمها المهيمن عليه ليدرك نفسه ويقيّمها أو ليفهم أو يقيّم المهيمِن، هي النّتاج لاستدماج التّنضيدات (classement) طُبعتْ كذلك، كينونته الاجتماعيّة هي النّتاج.[2] يقصد هنا أنّ أدوات التّفكير المدمجة داخل جسد المهيمن عليه هي الأدوات نفسها التي فرضها المهيمن. نذكر بعضا من الأدوات التي يشتغل بها هابتوس الأنثى في المجتمعات الأبويّة، نجد الضّعف والرّقة، واللّيونة، المتجسّد في سلوكها كمحاولتها لجعل صوتها أرقّ وألطف، كما تحاول أن- لا نقول أن

[1] المرجع السابق، ص179.
[2] ينظر: بيير بورديو، الهيمنة الذّكوريّة، ص62.

تتصنّع (نادرا ما تفعل ذلك) لأنّها لا تكون في وعيها لمّا تصدر عنها تلك السّلوك- تتّخذ موقفا سلبيا لمّا ترى فأرا من خلال صراخها أو صعودها على الكرسيّ، يُجسّد هذا السّلوك الأنوثة التي هي أداة خلقها المجتمع الأبوي لخدمة مصلحة المهيمن "الذّكر" كي يظهر قويّا، فإذا تصرّفت أو صدر عنها سلوك مغاير لِما وضَعه المجتمع تُقصى من دائرة الأنوثة والنّتيجة الرّفض مثلا خوف الرّجل من المرأة الجريئة. أتذكّر يوما أنّه سمع صوتي أحد أصدقاء صديقة لي استغرب منه قائلا بأنّني لا أملك صفات الأنوثة وهذا ناتج عن الوسط الذي تكوّن فيه الهابتوس الخاص بذلك الصّديق.

ويعرّف " شارودو وشوفالييه" العنف الرّمزي كونه **الإكراه** الذي **بواسطته يتآزر المسيطر عليه مع السّيطرة الممارسة عليه**، وذلك لأنّه ضحيّة أنظمة إدراك وتقدير اندمج فيه، تصدر قوّة السّيطرة هذه عن إنكار العنف الرّمزي الذي تمارِسه.[1] يقصد "بورديو" من التّآزر **التّواطؤ** الذي هو **معرفة وايمان بقدرة المهيمِن، ينعدم فيها الوعي** بالتّواطؤ النّاتج عن **جهل ميكانيزمات التّراتب الاجتماعي**، بحيث يُقزَّمُ دورهم في دور المتفرّج وينحسر وجودهم في فعل تكريس الهيمنة، يقترب هذا التّواطؤ أكثر– حسب "بورديو"- من مفهوم اللاوعي الاجتماعي، أو الأنا الأعلى للحضارة كما ذكره " فرويد" من مفهوم الإيديولوجيا عند "ماركس"،[2] كون هذه الأخيرة ناتجة عن عمليّة التّفكير والتّخطيط .

5. الهابتوس بين الحتميّة واللاحتميّة:

تتضمّن نظريّة "بورديو" فكرة اللاحتمية كتوجّه من توجّهات فكر ما بعد الحداثة بالرّغم من بعض القراءات التي استخلصت فكرة الحتميّة التي أتت – حسب شوفالي وشارودو- من **جدليّة البنيات البانية، والبنيات المبنيّة**، وقد تمَّ إدراكها من طرف البعض كنظريّة سجن نسقي تامّ يشتغل وفق الطّبيعة التّالية: **" تُنتج البنيات الهابتوس الذي يحدّد الممارسات التي تعيد انتاج البنيات"**[3] ممّا يجعل الفاعل حبيس الحلقة المُفرغة، لكنّ الجانب المُولّد للهابتوس الذي تحدّث عنه "بورديو" يُفلتُ الفاعل من تلك الحتميّة- وإن كان مؤقّتا في رأينا- لأنّه يمكن للسّلوك الجديد أن يغدو مع مرور

[1] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص 219- 220.
[2] ينظر: بيير بورديو، جان كلود باسرون، إعادة الإنتاج، ص76- 77-78.
[3] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص 123.

الأجيال هابتوسا. يؤكّد "شوفالييه وشوفيري " عن فكرة الإفلات من الحتميّة في قولهما أنّه إذا كان الهابتوس يحدّد صيغ الفعل وصيغ الوجود تبعا لمقولات الإدراك، والتّقديرات التي هي في جزء كبير: نتيجة لشروط الإنتاج هذه، فإنّه **مبدأ تكيّف وارتجال**، لأنّه يجب عليه أن يُتيح للفاعلين إنتاج ممارسات وصيغ وجود، تكون متلائمة **لتغيّرية الوضعيّات**، الذين يُحملون على مصادفتها في حياتهم اليوميّة.[1] بالإضافة إلى إمكانيّة تشكيل الهابتوس لصيغ وجود خارج عن تلك المُنتجة في الوضعيات الملائمة، هناك أيضا ما أسماه " بورديو" **بمواقف الأزمة** التي تقطع التّكيّف الفوري للهابتوس مع المجال. أمّا المبدأ الأخير الذي يُعطّل اشتغال الهابتوس أو تكيّفه مع المجال هو **الحساب العقلاني** والواعي، فقابليّة اللّجوء إلى مبدأ عقلاني لإنتاج الممارسات لها شروط إمكانها الاجتماعيّة والاقتصاديّة الخاصّة.[2] سنحاول شرح الفكرة بالمثال الموالي .

إذا عزلنا طفلة عن المجتمع (بعدم خروجها إلى الأعراس في القرية، أوعدم ذهابها إلى العين) أو تُهمل من طرف أمّها فلا تُلزمها ببعض الأعمال (لا يُنقل إليها الموروث الثّقافي الذي نشأت عليه) تقتصر على دورها كأمّ في توفير الطّعام مع تعليمها اللّجوؤ المُبكّر إلى وسائل الإعلام لقضاء أوقات فراغها خارج واجباتها المدرسيّة مثلا، تساهم هذه العوامل على عدم ترسّخ هابتوس كامل المرتبط بمحيط الفتاة، ممّا يخلق أزمة إن لم تعمل هذه الأخيرة على تكوينه، إمّا بتكملة النّاقص منه (دون وعي) أو خلق هابتوسا مُتميّزا (هذا لا يعني الاختفاء الكامل لبعض آثار الهابتوس المتكوّن لديها أثناء طفولتها المُبكّرة) يحدث ذلك إذا قُدّر للفتاة أن تلقى تعليما مُتميّزا أو سفرها إلى بلد غربي.

أمّا إذا كان الفاعل فاحش الثّراء ستتولّد من هابتوسه سلوكات مغايرة للّتي تتولّد عن الهابتوس العادي، يكون ذلك عن وعي من صاحبه أو عن الحساب العقلاني مثلا، ظاهرة زواج الفنّانات المشهورات برجل أصغر منهنّ سنّا، وهذا ما فعلته مُغنّية " البوب" (pop) "مادونا" (Madonna) التي يعيش معها صديقها ذو الأربعة وعشرين ربيعا، فوضعيّتها الاقتصاديّة سمحت لهابتوسها من إنتاج سلوك مغاير عن السّلوك الذي يصدر عن هابتوس عادي- الزّاوج من رجل أكبر نظرا لمكوّنات الهابتوس، العاطفي (الشّعور بالأمان، والفخر) الدّافع (وضعيّته الاقتصايّة جيّدة ليُلبّي حاجيّاتها)- أمّا في

[1] المرجع نفسه، ص 124.
[2] ينظر: بيير بورديو، بعبارة أخرى، ص183- 148.

وضعيّة "مادونا" فقد خطّطت لتُؤسّس لعلاقة مع شاب أصغر منها ممّا يحيل لفكرة الحرّية المتعلّقة بقدرة الاختيار.

يقول " شوفالييه وشوفيري" عن مشروع " بورديو" أنّه بمثابة جهدٍ **للتّجاوز النّظري والعملي** لبديل **الحتميّة والحرّية**، يوجد هنا عنصران متقاطعان، يتعلّق الأوّل، **بحرّية خاضعة للإكراه** أمّا الثّاني، **فبحرّية عبر المعرفة**، يعني ذلك المتعلّق بتفكير الاعتيادية الذي يسعى إلى الالتحاق بالمنطق الواقعي للممارسات من أجل تخطّي الحتميّة المُستوية إلى " بافلوف" (Pavlov) والحرّية المُستوية إلى " سارتر" (Sartre)[1] ممّا ينفي الحرّية المطلقة عن الإنسان والآليّة عن سلوكه فهو يقع بينهما، وهو نوع من التّوفيق بين المذهبين اللّذين بالغا فيما ذهبا إليه بخصوص سلوك الإنسان لأنّه توجد في هذه الحياة التزامات يجب العمل بها وإلاّ ستكون حياته فوضى.

نجد إذن، نوع من **الحريّة المُقيّدة**، لمّا يُنتج عنصر الهابتوس عددا لا نهائيّا من السّلوك انطلاقا من عدد محدود من الأنظمة المُولِّدة، كما أنّه مُدرَكٌ لعرض هذه الحرّية المضبوطة ومرونة وتعقيد لعبة التّحديدات ثمّ اللّعب مع التّحديدات التي تكوّن حقيقة المنطق المشتغل.[2] نفهم من ذلك أنّ المنطق المُكوّن للهابتوس، يمكن أن يتلاعب هذا الأخير ببعض أو بكلّ معاييره لمّا يعمل على تغييره. كما يسمح هذا الجانب الارتجالي للهابتوس **بعرض قوّة الفاعل لإنتاج مواقف وممارسات ملائمة** لتنوّع **وتغيّرية المواقف** التي يجب عليهم مجابهتها في حياتهم.[3] نجد العكس عند "فوكو" الذي يلغي فاعليّة "الفاعل" مختزلا دوره في الخضوع للهيمنة الآتية من الخارج (المؤسّسة) بينما "بورديو" يبيّن كيف أنّ الفاعل ينتج تلك الهيمنة ليخضع لها فيما بعد.

بالرّغم من تأكيد "بورديو" على تحقيق الهابتوس لشكلٍ تجمّعي للضّرورة والحرّية حين يتلائم مع قواعد الحقل – حسب شوفالييه وشوفيري- بمعنى كون تلك الحرّية ليست موهِمة لأنّها تُطابق استقلالا ذاتيا وواقعيّا، تستطيع أن تصبّ في إبداع ممارسات حقيقيّة لكن ذلك هو نوع من تنفيذ للتّلقائيّة أكثر منه للحرّية لأنّه – يذكر الباحثان السّبب- إذا كان الفعل معيشا من طرف الفاعل بصفته حرّا ومن غير إكراه في الحدود

[1] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص 128- 129.
[2] المرجع السابق، ص129.
[3] المرجع نفسه، ص ن.

التي يكمن فيها مبدأ فعله وقدرته على التّكيّف مع الأحداث المفروضة عليه، يبقى أنّ حرّية الفعل هذه ليست واعية بالشّروط التي تُحدّدها وليست مصحوبة بمعرفة إجراءات المُشْرَكة القائمة في أصل تغيير الأنظمة المُولّدة التي من خلالها تعبّر عن نفسها وتُدرك قيمتها.[1] أي أنّه لمّا ينتج الهابتوس سلوكا جديدا ليست حرّية، بل هي نوع من التّلقائيّة نظرا لجهل الإجراءات المنتجة لذلك السّلوك، فإذا سلّمنا بقول الباحثان، يعني ذلك النّفي التّام لتدخّل الوعي أو الحساب العقلاني لدى الفاعل، في حين أنّه نجد " بورديو" يؤكّد على تدخّل هذا الأخير.

صحيح أنّ **علم الاجتماع** (ينتمي النقد الثقافي إلى العلوم الإنسانيّة وليس إلى العلوم الاجتماعيّة التي تدّعي تحليل الأمور موضوعيّا كما يقول "ديورنغ")[2] أنّ - كغيره من العلوم- **يقبل مبدأ الحتميّة** باعتباره **شكلا لمبدأ العلّة الكافية**، العلم الذي يجب عليه تعليل ما هو قائم ويُقرُّ أن **لا شيء موجود من دون سبب لوجوده** ويضيف عالم الاجتماع " **اجتماعيّ**" لكن، هناك **خلط في مفهوم "الحتمية"** بين شيئين مختلفين تماما: **الضّرورة الموضوعيّة الموجودة في الأشياء والضّرورة "المعيشة"** الظّاهرة للعيان والذّاتيّة، والشّعور بالضّرورة لذلك نجد "بورديو" يرفض الانحياز" للحتميّة" أو"الحرّية"[3] لنقل أنّ ما يحدث في الطّبيعة من تفاعلات كيميائيّة وموت الكائن الحيّ هي حتميّة أمّا فيما يرتبط بما يحدث في المجتمع ضرورة أو ميكانيزم خلَقه الإنسان.

يتبنّى "بورديو" – حسب شوفالييه وشوفيري- **تصوّرا يعود إلى "باروخ سبينوزا" حول الحرّية كمعرفة بالأسباب التي تُحدّدنا**، فالفاعل ليس له حظٌ ليصير"ذاتا" إلاّ إذا صار على علم بالضّرورات وفي المقام الأوّل بطبيعة البنيات الذّهنيّة التي تحدّد تلقائيّته، آنذلك، يمنح نفسه إمكانيّةً لا يمكن أن ينالها ذلك الذي ليس له وعيٌ بالتّحديدات والذي يجعل من الضّرورة فضيلة،[4] **فمعرفة** تلك **الضّرورة** (الأسباب) **تُظهرُ إمكانيّة الاختيار** الموجودة في كلّ علاقة من نوع: **إذا كان لدينا كذا، سوف نحصل على كذا**، فالحرّية التي تنطوي على قبول إذا أو رفضها مجرّدة من المعنى طالما جهل المرء العلاقة

[1] المرجع نفسه، ص130..
[2] ينظر: سايمون ديورنغ، الدّراسات الثّقافيّة، ص28.
[3] ينظر: بيير بورديو، مسائل في علم الاجتماع، ص70 -71.
[4] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص132.

التي تربط هذه " الماذا" "بسوف" فكلّ قانون مجهول هو طبيعة وقدَر.[1] نجد مثلا قانون الزّواج، فلمّا نجهل ظروف نشأته والدّوافع، سنعتبره طبيعة وقَدَرا أمّا إذا عرفنا الأسباب والدّوافع، ستكون هناك إمكانيّة الاختيار أي سيكون الفاعل حرّا في تطبيقه أم اختراقه (بقاؤه عازبا)، لا ننسى أنّه يجب أن تكون هناك شروطا (اقتصاديّة، فكريّة..) ليصدر عنه هذا السّلوك وهذا أمرٌ معقول جدّا أي أنّنا لمّا نعرف أسباب ودوافع اشتغال ميكانيزم ما، يمكن لنا الاختيار شرط توفّرنا على ظروف تساعدنا على ذلك.

6. نظرية الهابتوس ونقد البنيوية:

تتضمّن نظريّة "بورديو" نقدا للبنيويّة التي تجاهلت في تحليلاتها دور الفاعل بسبب طابعها الموضوعي (كعلم) مختزلة إيّاه في عمليّة صراعه مع الطّبيعة للحفاظ على وجوده،[2] فهي طريقة تحليل تقوم على النّظريّة اللّغويّة والفكر الأنثروبولوجي اللّذين يركّزان على العلاقات الموجودة بين العناصر في نظام ما بدلا من العناصر نفسها، ويمكن أن يكون هذا النّسق خرافة أو قصّة أو فِلْما، أو نوعا أدبيّا مُعيّنا، أو الأدب بصفة عامّة، تبحث النّظريّة البنيويّة في نظام العلاقات التي تقدّم المعنى، أمّا الآخر (الفكر الأنثروبولوجي) فيحدّد فقط ما هي العلاقات البارزة بين الأشياء التي يجب اعتبارها كعلامات وإشارات - تكمن ربّما هنا العلاقة بين البنيوية ودراسة الثقافة- فالأفعال والأحداث لها معنى في علاقتها بالثّقافة الموجودة بها التي تقترح أن يُعدّ افتراضيّا وليس طبيعيّا، كما يمكن أن يُنظر إلى هذه الثّقافة على أنّها نظام إشارات، وأعراف، أو قواعد لتفسير هذه العلامات / الإشارات، وهناك علاقة بين هذا النّوع من التّفكير وأعمال "سوسور" (Saussure) كون المفاهيم مختلفة لا تُفهم على أساس محتواها الإيجابي، بل سلبي بعلاقاتها بالمعايير الأخرى[3] فإذا أخذنا مثلا، كلمة أسود المقابلة لكلمة أبيض، فالمحتوى الدّلالي لكلمة أسود تتضمّن كلّ ما هو سلبي في كلمة أبيض.

وقد جاء هذا الفصل الثّنائي من التّمييز السّوسوري بين اللّغة والكلام الذي – حسب "بورديو"- يقلّص" فعل الكلام إلى مجرّد تنفيذ"، هذا الإفتراض القبلي لكلّ" البنيويّات "

---

[1] ينظر: بيير بورديو، مسائل في علم الاجتماع، ص72.

[2] Voir: Patrice Bonnewitz, Pierre Bourdieu, vie, œuvres, concepts, p10.

*synchronique: qui est relatif à se qui se fait dans le meme temps. آني

[3] ينظر: آرثر أيزابرجر، النقد الثّقافي: تمهيد مبدئي في المفاهيم الرّئيسيّة، ترجمة: وفاء إبراهيم، رمضان يسطاويسى المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2003، ص150.

المُطبّق على تقسيم: ثقافة / سلوك يمنع التّفكير في العلاقة بين كَنهَين اثنين بطريقة مغايرة عن تلك الخاصّة بالنّموذج وبالتّنفيذ، وبالجوهر، والوجود.[1] على الرّغم من دور البنيويّة في تكوين"بورديو" – **أخذه فكرة كون نماذج التّعارضات يعكس المعنى الخفيّ الكامن**-[2] ليحلّل الأنساق الرّمزيّة في أعماله الإثنولوجيا للمجتمع القبائلي في الجزائر مكتشفا محدوديّتها. لقد كان "للفي شتراوس" **نظرة سانكرونيّة* للبنيات اللاواعية** تفرض تحديدها على العلاقات الاجتماعيّة، وهو ما **ينزع إلى إبطال الفاعل والتّاريخ** ليعيد " بورديو" إدراج الفاعليّة **ليجعل البنيات ديناميّة**، فهو يؤرخن المفهوم المجرّد للبنية بإقامة مبدأ جدليّة البنيات الموضوعيّة والبنيات الذّاتيّة،[3] أي يبرز دور الفاعل في بناء تلك البنية عبر التّاريخ عكس البنيويّة التي كما يقول عنها " فرانز بواس" (Boas) كونها تدرس الإنسان ككائن اجتماعي يشمل موضوع **دراستها جميع ظواهر الحياة الاجتماعيّة الإنسانيّة دون تحديد زمني أو مكاني** من خلال **وضعها القوانين العامّة التي تحكم الظّواهر الثّقافيّة** على حدّ تعبير"راد كليف براون".[4] كما تجاهل " شتراوس" شروط الإنتاج وإعادة الإنتاج، واستعمال موضوعات رمزية في الحركة التي كانت تُظهر بها المنطق المُتأصّل، يقصد هنا الظّروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي يعيش فيها الفاعلون التّاريخيّون الممنوحون باستعدادات مُستدامة.[5] نفهم ممّا سبق سعي "بورديو" إلى إحداث تجديد في التّحليل البنيوي مضيفا إليها مصطلح **البنائيّة**، التي تحيل إلى وجودها في العالم الاجتماعي وليس في اللّغة، والأساطير، وفي الأنساق الرّمزيّة الخ، بنيات موضوعيّة مستقلّة عن وعي، وإرادة الفاعلين القادرين على توجيه وكبت ممارساتهم، وتمثّلاتهم أريد أن أقول- يضيف بورديو- **يوجد عبر البنائيّة تكوّن اجتماعي**

[1] Voir: Pierre Bourdieu, le sens pratique, p.55

[2] المرجع نفسه، ص 152.

[3] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص59.

[4] ينظر: ايكه هولتكرانس، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، ترجمة: محمد الجوهري، حسن الشّامي، دار المعارف، الطبعة الأولى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الثانية، مصر، 1972، ص50- 52.

[5] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص61.

لجزء من أنظمة الإدراك، والفكرة والفعل المؤلّفة لما أسمّيه الهابتوس ومن ناحيّة أخرى لبنيات اجتماعيّة، وبالأخصّ ما أسمّيه حقولا.[1]

عمل "بورديو" من خلال البنيوية البنائيّة على جعل الجسد المُستشرك مكان مصادفة جدليّة بين زمنين، الزّمن البنيوي للاستعدادات المدمجة والزّمن البنيوي للأوضاع الاجتماعيّة، تكمن أصالة هذه البنيوية النّقدية التي وضعت الفعل والبنية في علاقة انطلاقا من نموذج "بنية – هابتوس- ممارسة"- لا يكمن فقط- في أنّه يجعل البنيات المجرّدة والتّزامنيّة "لليفي شتراوس" في السّياق ويؤرخنها، بل يكمن أيضا، في كونه يجعل من جسد مُسْتشْرك نقطة التقاء هذا التّركيب المُزدوج مُعيدا بذلك إعادة ردّ تجربة الفاعلين المموضعين داخل فضاء هو لهم الذين يمتلكونه كلّ بطريقته بما أنّهم يعيشون فيه داخل وضعيات مغايرة، وبذلك لا تُفهم الممارسة كونها أُحاديّة الإشتغال، بل هي مرتبطة بمواقع الفاعلين الذين ترهنهم.[2] إذن، يختلف معنى بنيوية "بورديو" عن معنى البنيويّة لدى "سوسور" و"شتراوس"، فهي تعني عند "بورديو" أنّ هناك في العالم الاجتماعي نفسه وليس فقط في الأنساق الرّمزيّة مثل، اللّغة، والأسطورة بنيات موضوعيّة مستقلّة عن وعي ورغبات الفاعلين قادرة على توجيه أو تقييد ممارساتهم، وتمثّلاتهم. أمّا البنائيّة تعني أنّ هناك توليدا اجتماعيّا لمنظومات الإدراك، والفعل، والفكر التي تؤسّس الهابتوس من جهة، وللبنيات الاجتماعيّة أو المجالات ما يُسمّى الطّبقات الاجتماعيّة من جهة أخرى.[3]

يعني ذلك، عدم انحصار وجود الطّابع البنيوي في الرّموز، والأساطير، بل توجد أيضا في الواقع، أي تُبنى من طرف الهابتوس وبدورها ترسّخ هذا الأخير في أجساد الفاعلين، و يمكن تمثيل ذلك بتحليل "بورديو" لثقافة المجتمع القبائلي المُركّز على الفعل الجنسي والأعضاء المُوظّفة فيه بخصائصها المؤوّلة بعد الترميز لها لتدخل في تكوين **مفهوم الثقافة الذي صاغه "بورديو" كشكل من أشكال رأس المال (رأس مال ثقافي)**

[1] Voir: Pierre Bourdieu, choses dites, collection « le sens commun » édition de Minuit, Paris, 1987, p147.

[2] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، 64.

[3] ينظر: بيير بورديو، بعبارة أخرى، ص205.

بقوانينه المحدّدة للتراكم والتبادل والممارسة،[1] أي أنّ عملية بناء الرمز وعملية إعادة بنائه المتعلقة بالأعضاء والفعل الجنسي ستبنى في الوسط وفي الممارسات اليومية للجنسين الثابتة بمرور الزمن مكوّنة رأسمال ثقافي قابل للوراثة.

لنعد إلى كيفية بناء الثّنائيّات (التّرسيمات) انطلاقا من الأعضاء التناسلية المكوّنة للمعرفة المرتبطة بالجنسين إذن، لدينا العضو التناسلي الذكوري كمدرك حسّي يتميّز بالخصائص: مُبهّر أو فاتح يمثّل: النور أو الحياة، والعضو التناسلي الأنثوي كمدرك حسّي يتميّز بالخصائص: غامق أو مُعتّم يمثّل الظّلام. لدينا تشكّل ثنائيّة: **منير / ظلام**. بالإضافة إلى تشكّل ثنائيّة أخرى **قوّة / ضعف** التالية، العضو الذكري: صلب وبارز تستنتج القوة و الشدّة، والعضو الأنثوي: رطب ومقوّس (متخفي) تستنتج ليونة وضعف. حاولنا شرح باختصار كيف تُشكّل البنية المتكوّنة من ترسيمات لتكون منطلق العمليات البنائيةللعالم الرمزي (اللغة) الخاص بهوية الجنسين المتكوّنة من **محمولات فيزيائية لجسديهما استنتجت منها محمولات نفسية تميّزهما عن بعضهما البعض، ما يعمل على محو الذات** [2] هوية الأنثى الحاملة لرموز سلبية مقابل هوية الذكر المسند إليها رموزا إيجابية، تدخل هذه **الرموز المصطنعة في الهُويتين لتحلّ مكانهما**[3] أي أنّ الرموز المعاد بناؤها انطلاقا من الرموز الأصلية ستعوّض الجسدين المختلفين وإن كانت لا تعبّر عن حقيقتهما ككيان. كما تُستنتج الترسيمات أيضا من" **وضع الفوق في الفعل الجنسي"**[4] للجسد الذّكوري المتحرك مقابل الجسد الأنثوي في الأسفل الثابت، لتوضع ترسيمة: **فوق/ تحت** أو أسفل المستنتجة منها فاعلية الذكر/ سكون الأنثى بالرغم من كون الوضعية كما يقول المفكرون **ليست طبيعية، بل ثقافية لأنّ نظر الجنسين إلى**

[1] جون سكوت، خمسون عالما اجتماعيا أساسيا: المنظرون المعاصرون، ترجمة: محمود محمد حلي مراجعة: جبور سمعان الشبكة العربية لأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2009، ص115.(تصرف)

[2] ينظر: بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة بيروت- لبنان، الطبعة الأولى،2005، ص119- 124.

[3] ينظر: جان بودريار، المصطنع والاصطناع، ترجمة: جوزيف عبد الله، مراجعة: سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 2008، ص27.

[4] بيير بورديو، الهيمنة الذكورية، ص24.

بعضهما البعض يعني تبادل الاحترام[1]، وأنّه في القديم لم تكن ربما الوضعية موجودة إلا بعد ارتقاء الفكر الإنساني.

سنرى كيف تُنقل البنية الفكريّة إلى الواقع الاجتماعي المكوّنة من ثنائيات (ترسيمات): **مُنير / معتّم، قويّ/ ضعيف، فوق/ تحت، يسار/ يمين**.. وهذا ما يؤكّده "بورديو في كتابه " الهيمنة الذّكوريّة" كون **مبدأ التقسيم متأصّل أيضا في الأشياء**،[2] فالجزء المعتّم في المنزل التقليدي القبائلي، مكان مخصّص لأشياء لها علاقة بالماء (الرطوبة) كالإناء الفخاري الذي يحفظ فيه، والعشب الأخضر، والحيوانات التي ترمز للحياة، وهو كذلك مكان للجنس والولادة والموت، مقابل المنطقة المرتفعة المضيئة، حيث تحفظ أدوات الطبخ والمصباح المصنوعة من النار والحديد.[3] كما نلاحظ **فالأعضاء التناسلية بخصائصها حاضرة مجازيا**[4] في البيت والأشياء المتواجدة فيه، أمّا عن الأماكن لا بأس من ذكر بعضها فالبيت مكان خفيّ مخصّص للأنثى، كذلك العين أين تحضر الماء كمكان بعيد عن الأنظار، تقابلها الأماكن الظاهرة المتواجدة بالخارج المخصّصة للذّكر كالمسجد، والسّوق، والمقهى.. المجسّدة لترسيمة: خفيّ/ ظاهر. تتجسّد البنية إذن في كوسمولوجيا الجنسين كالتّالي: المنطقة المنيرة للبيت مُخصّصة للذّكر، يتواجد فيها كلّ ما يحيل إلى **الشّدة، والقوّة** (الأواني المصنوعة من الحديد) الكانون (النار) المُوافقة أيضا **للفوق** البندقيّة المعلّقة على الحائط المقابل للحائط المظلم، وتقابل المنطقة **العليا المنيرة** المنطقة المخصّصة للأنثى الموجودة في **الأسفل**، والمكان **المعتّم**، أين تقوم بأعمالها.

لا تقتصر عمليّة تجسّد البنية في الواقع القبائلي، بل تتمظهر أيضا في أعمال الرّجل والمرأة بحيث يُبنى الواقع القبائلي وفق نفس **الترسيمات المتأصّلة في الأجساد على شكل استعدادات التي يتمّ وفقها تقسيم العمل**،[5] بمعنى أنّ الممارسات تكون مطابقة للترسيمات الموجودة في الذهن بفضل الاستعدادات المرسخة في الجسد والذّهن، **فكلّ**

[1] Voir: Michel Théron, comprendre la culture générale, édition Marketing éditeur des préparations de grandes écoles médecines, Paris, 1991, p24.

[2] بيير بورديو، الهيمنة الذكورية، ص47.

[3] Voir: Pierre Bourdieu, le sens pratique, les éditions de minuit, Paris, 1980, p443.

[4] ينظر: بيير بورديو، الهيمنة الذّكورية، ص30.

[5] Voir: Pierre Bourdieu, le sens pratique, p 356.

ممارسات الأنثى، تمارسها في الأماكن السفلية والمعتّمة من المنزل،[1] نجد الشيء نفسه في ممارسات الرّجل في المنطقة الظّاهرة غير المتخفّية، وهذا هو سبب اختلاف الأعمال المنسوبة للمرأة والرّجل في المجتمع التقليدي القبائلي، تُرجع ذلك "بن حتيرة" **إلى جسد المرأة الباعث على الإغراء، عكس الرّجل الذي يتمتّع بالحرية والتحرك،**[2] وهو سبب معقول جدّا خاصّة وأنّ كوسمولوجيا الجنسين مبنيّة على عمليّة إدراك الظّاهرة الجنسيّة (الأعضاء التّناسليّة والفعل الجنسي).

ممارسات الرّجل: **النفض (الزّيتون)، والإسقاط** (أثناء قطع الأشجار)- **حمل العارضة*** يتواجد جسده في وضعيّة استقامة، مقابل ممارسات الأنثى: **الجمع، والعزق، وحمل الأحجار**** التي يكون فيها جسدها في وضعيّة إنحناء تتجسد هنا ترسيمة: مستقيم / مقوّس. أمّا أفعال: **الطبخ- الغزل- الطّحن والاعتناء المرتبطة بالداخل،** مقابل ممارسات: الرعي، الحرث، التسوّق المرتبطة بالخارج، تتجسّد هنا ترسيمة: **داخل/ خارج.** كما أنّ أفعال النفض والقطع، والبناء تتطلّب الصعود للأعلى مقابل أفعال: الجمع العزق الطحن والغسل تتجسّد بها ترسيمة: **أعلى/ أسفل** التي تذكّرنا بوضعية الفعل الجنسي.***

7.اشتغال الهيمنة:

عالج " بورديو" كغيره من المفكّرين ما بعد الحداثيين فكرة السّيطرة، فوراء – على حدّ تعبير شوفالييه وشوفيري- مفهوم السّيطرة، تتجمّع ظواهر اجتماعيّة متنوّعة مثل، مواقع، وممارسات، وهابتوس.. لينتهي مثلهم بطريقة أو بأخرى إلى تأسيس نماذج تأويليّة لتحليل البنيات العامّة للتّراتبيّة الاجتماعيّة، والثّقافيّة التي تميّز الجماعات المُسيطرة (الغالبة) والجماعات المسيطر عليها (المغلوبة) داخل المجتمعات.[3] لقد شاع في فكر ما

---

[1] المرجع نفسه، ص445.

[2] ينظر: صوفية السّحيري بن حتيرة، الجسد والمجتمع، دار محمد علي، تونس، الطبعة الأولى، 2008 ص103.

* قطعة خشب عريضة يُبنى بها السّقف.

** تحمل المرأة كذلك الماء على ظهرها في قِربة مصنوعة من الفخّار، أو من جلد الماعز، ومازالت هذه الظّاهرة إلى يومنا هذا في بعض المناطق (دائرة الأربعاء ناث يراثن) Fort - national وإن اختلفت الوسيلة التي يُحملُ فيها الماء.

*** وردت الممارسات المجسّدة لترسيمات البنية في جدول- حاولنا استخلاص الممارسات وما يقابلها من الثّنائيات (أعلى/ أسفل، مستقيم / مقوّس، ظاهر / متخفّي...) في كتاب "le sens pratique " ص358.

[3] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص 188.

بعد الحداثة كما رأينا الحديث عن مفهوم "الهيمنة" أو "السّيطرة " فهل يعنيان الشّيء نفسه ؟ أم هناك اختلاف كما يعتقد الجميع ؟ قبل التّعرّض لطريقة اشتغال الهيمنة سنرى مفهوم الهيمنة ومختلف المرادفات في علم الاجتماع وعلم النّفس. جاء مفهوم **"سيطرة"** في إحدى موسوعات علم الاجتماع **مرادفا للهيمنة (domination)** الذي يعني **الامتثال عن طريق القهر** فالأفراد قد يمارسون القوة بعضهم على بعض الآخر، أي السيطرة سواء باستخدام القوة الغاشمة أو على أساس أنّ من تمارس معهم هذه القوة يتخيّلونها بوصفها قوة شرعية".[1] أمّا في علم النفس، فنجد مصطلحا آخر هو **السيادة وهي حالة نفسية، أو فيزيولوجية، يكون لها الأسبقية على غيرها من الحالات والخصائص، كما أنّها نزعة إلى التحكم في الآخرين.**[2] نلاحظ المعنى نفسه وإن تباينت التّسميّات .

لكن ما لاحظناه هو تداول أكثر لمفهوم الهيمنة الذي وضعه "غرامشي"* (AntonioGramsci) يشمل التّعريف التّقليدي للمصطلح مفهوم السّيادة والتّحكّم والسّيطرة السّياسيّة، لا سيما الدّول ذات السّيادة ليوظّفه بمعنى مختلف حيث يرى أنّ **للهيمنة مضامين ثقافيّة نفسيّة،** أي كيف كانت الطّبقات المسيطرة قادرة على إقناع هؤلاء الذين تستغلّهم، كون موقفهم طبيعي وبالتالي هو موقف عالمي (Universal) ومن ثمّ لا يمكن تغيير ما هو قائم بالفعل. يفسّر " آيزبرجر" ما ذهب إليه "غرامشي" كون الموسّسات الثّقافيّة (المكوّنة للبنية الفوقيّة) هي المؤسّسات المهيمنة وليست البنية التّحتيّة والعلاقات الاقتصاديّة، كما تلعب دور إقناع النّاس على قبول الوضع القائم كما هو [3] وإن كان يركّز، كما لاحظنا وإن عكس الوضع على الطّبقات مثلما فعل "ماركس". نشير فقط أنّ الطّبقة عند "بورديو" ليس بالمعنى الماركسي أي بوصفها جماعة مُعبّئة في سبيل أهداف مُشتركة خصوصا ضدّ طبقة أخرى فالقُربُ في الفضاء الاجتماعي، يولّدُ طبقة مُحتملة ليست دائما طبقة واقعيّة، بتعبير آخر، كون

[1] جوردون ماريشان، موسوعة علم الاجتماع، المجلد الأول، ترجمة: محمد الجوهري، هناء الجوهري وآخرون، مراجعة وتقديم: محمد الجوهري، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الثانية، 2007، ص718.

[2] ينظر: عبدالعزيز، معجم علم النفس والتربية،ج1، إعداد: فؤاد أبو حطب، محمد سيف الدين فهمي، تنفيذ: سعد الحرب المطابع الأميرية، مصر، 1974، ص47.

* فيلسوف ماركسي ايطالي (1891-1937).

[3] ينظر: آرثر أيزابرجر، النقد الثّقافي: تمهيد مبدئي في المفاهيم الرّئيسيّة، ترجمة: وفاء إبراهيم، رمضان يسطاويسى المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2003، ص108.

الطّبقات الاجتماعيّة غير موجودة وما يوجد هو فضاء اجتماعي فضاء اختلافات فالخطأ كامن – حسب شوفالييه وشوفيري- في أنّ "بورديو" نظر إلى أنّ الطّبقة الوحيدة ليست واقع الشيء، ما دامت غير معروفة ومُعترَفٌ بها.[1] يتحدّث هنا عن طبقات كثيرة عِوض الطّبقة بمعناها الثّنائي عند "ماركس" (برجوازية / بروليتاريا) كما أنّ الطّبقة عند "بورديو" مفهوم مَرن يمكن أن تتكوّن بين الفينة والأخرى كونها نتاج تصنيفات وخصوصا نهاية صراع تصنيفات كصراع رمزي وسياسي من أجل فرض رؤية للعالم الاجتماعي وتوجد على الدّوام- كما يشرح شوفالييه وشوفيري- اختلافات وتميّزات أكثر ممّا هو فكر طبقات واقعيّة.[2] يقصد هنا الحقول المُكوّنة للعالم الاجتماعي.

ويتضمّن – حسب ريموند وليامز (Raymond Williams) - مفهوم الهيمنة ويتجاوز أيضا مفهومين: الأوّل، الثقافة، من حيث كونها عمليّة اجتماعيّة كلّية يحدّد، ويشكّل البشر فيها حياتهم الكلّية، أمّا المفهوم الثاني، هو الإيديولوجيا، في أيّ معنى من معاني الماركسيّة، ونجد فيها منظومة من المعاني، والقيم، تعبّر وتكشف عن مصالح طبقة بعينها. تتجاوز الثّقافة كما تحدّدت من قبل في إصرارها على الارتباط بالعمليّة الاجتماعيّة برمّتها من حيثُ تَوَزُّع مكامن القوّة، والتّأثير بطريقة دقيقة وبمجرّد الاعتراف بكلّية الهيمنة، إنّما ينطوي على تسليمنا بأنّ الهيمنة تتجاوز مفهوم الإيديولوجيا فما هو حاسم ليس فحسب الوعي بنظام الأفكار، والمعتقدات، وإنّما الوعي بالعمليّة المعاشة كلّها الّتي نظّمتها عمليّا معاني وقيم محدّدة وسائدة، وتختلف الهيمنة عن الإيديولوجيا كونها أكثر انتشارا وأكثر تجريدا، كما أنّها تسيطر على حياتنا وعلى تصوّراتنا، فهي عالم لا رجعة فيه.[3] لنقل أنّ مفهوم الهيمنة أصبح يشمل كلّ المجالات المذكورة، الثّقافة بمفهومها العام، والسّياسة وكلّ نشاطات الإنسانيّة أمّا القول بعالم لا رجعة فيه يتضمّن فكرة استحالة تحقّق القيم التي لطالما هلّل بها فكر الحداثة لأنّ بناء الوضع الاجتماعي على الهيمنة معناه عدم وجود المساواة.

يقود التّحليل الذي قام به "بورديو" – يقول شوفالي وشوفيري- انطلاقا من تصوّرات السّلطة الرّمزيّة، والعنف الرّمزي لأشكال أخرى من السّيطرة، حيث يستخلص وجوها عديدة للسّيطرة ليتفحّص فكرة أنّ هذه السّلط **تملك الفعّالية الرّمزية** كقاسم مشترك،

[1] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص197.
[2] المرجع نفسه، ص198.
[3] ينظر: آرثر أيزابرجر، النقد الثّقافي، ص 108- 109.

يمنحه إيّاها تطابق البنيات الموضوعيّة مع البنيات الذّاتيّة التي تعبّر فيها هذه السّلط عن نفسها.[1] كما أنّ هذه السّيطرة – يضيف شوفيري وشوفالييه- كما هو الحال عند " فوكو" – الذي يختزل السّلطة في العنف[2]- تُضفي أشكالا متنوّعة غير قابلة للاختزال التي تتميّز خلافيّا تبعا للحقول الاجتماعيّة المعنيّة، وأشكال السّيطرة المرتبطة بها، اقتصاديّة، وجنسيّة ولسانيّة، وإثنيّة الخ، كالسّيطرة الذّكوريّة في العالم الأسري والعلاقة بين المعلّم والتّلميذ في المدرسة أو العلاقة التّبعيّة بين كاتبين داخل الحقل الأدبي.[3]

إنّ أصالة "بورديو" – حسب" شوفيري وشوفالييه"- **لا تأتي من تنويهه إلى أنّ المسيطر عليهم يساهمون في السّيطرة الخاصّة عليهم، لكن لمّا يبيّن أنّ انخراطهم يقوم على التّركيب الاجتماعي " لأدواتهم المعرفيّة"** أي لمقولات إدراكهم وتقديرهم للعالم الاجتماعي ومبادئ تراتبيّته.[4] رغم تخلّل الهيمنة إلى كلّ شيء وكون المعرفة معرفة الاجتماعيّة، فقد تمّ الكشف عن طرق اشتغالها من طرف بعض الأشخاص الذين تمّ تطويعهم اجتماعيّا على نحو غير كامل لذلك فهم يملكون القدرة على رؤية الأشياء على حقيقتها بخلاف أولئك الذين طُوِّعوا تماما اجتماعيا فهم من ثمّ لا يرون الأشياء على حقيقتها،[5] يقصد هنا علماء الاجتماع والفلاسفة وغيرهم، الذين كشفوا عمّا يتستّر خلف الوضع الاجتماعي، وإن نُؤاخذ بعض الشّيء " آيزابرجر" حديثه عن **حقيقة الأشياء** لأنّ ذلك يوقع – حسب ما فهمناه- نظريّة "بورديو" في ما تنقده أي وجود حقيقة ستكشف عنه تلك النّظريّة.

يسمح لنا ما سبق، القول أنّ الهيمنة بمفهومها الجديد هي نفسه السّيطرة عند "بورديو" تشمل كلّ مجالات الحياة السّياسية، والاجتماعيّة، والفنّية وغيرها، ولا ننسى بأنّها **تمارس خفية في الجسد وبالجسد أو امتداداته** على **معنى الرّمز، والمعنى**، لذلك كثيرا ما يحيل "بورديو" في حديثه عن شرعيّة الهيمنة إلى "فيبر" (Weber) بيْد أنّه ما يبدو إضافة تُحسب "لبورديو" هو **كشفه لآليات الهيمنة عبر الرّأسمال الرّمزي**، وقد سمّاها **"بالخيماء الرّمزية"** التي هي "قوّة سحريّة" تجعل من كلّ خاصّية أيّا كانت، قوّة

[1] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص189.
[2] ينظر: بيير بورديو، جان كلود باسرون، إعادة الإنتاج، ص55.
[3] المرجع نفسه، ص194.
[4] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو ، ص220.
[5] ينظر: آرثر أيزابرجر، النقد الثّقافي، ص110.

جسديّة، أو ثروة، أو قوّة حربيّة، أو موهبة، أو معرفة رأسمال رمزي.[1] صحيح هناك حديث عن الجسد عند "فوكو" وإن كان بشكل أعمّ مقارنة "ببورديو"، ففي حديث " **فوكو" عن خطاب السلطة المصطنع من الواقع، يقول بأنّه ليس مجرّد مجموعة من الأدلّة التي تشير إلى مضامين أو تصوّرات، بل هو أيضا ممارسات تتكوّن من خلالها الموضوعات المتحدّث عنها،**[2] تعمل تلك الخطابات على **تحيين المعارف المتجسّدة في الأجساد وبالإرادات.**[3] يذكر لنا مثالا عن تلك الخطابات، هو خطاب **الأخلاق المندمجة في الآلة الانضباطية التي تعمل على إنتاج جسد مُنمّط، المشتغل حسب المواصفات المعرفية لتقلب تلك "الطاقة الناتجة عن الجسد المحكوم عليه، ليجعل منها علاقة تبعية صارمة.**[4]

نلاحظ في حديث "فوكو" عن الجسد، كونه جسدا متأثّرا (مهيمن عليه من الخارج) أو بتعبير "إيجلتون" **مفعول به**[5] متأثّرا فحسب وليس مُؤثّرا كما هو عند "بورديو"، بحكم أنّه هو من يبني ويعيد بناء تلك الهيمنة، **كون الجسد مُزوّد بنظام مرجعيّات من أجل بناء فضاء،**[6] بفضل العمل البيداغوجي - الذي ينزع إلى إنتاج الجهل بالحقيقة الموضوعيّة للاعتباط الثّقافي- كعمليّة تلقين طويلة أو عبر النّبذ كي يُنتج "هابتوسا" باعتباره نتاجا لاستبطان مبادئ اعتباط ثقافي قادر أن يتأبّد لمّا ينتهي الفعل البيداغوجي[7] وهذا ما يؤكّد قول "إيجلتون" حيث أصبح الفرد يتكامل جسده مع هُويّته، إذ غدا أكثر الأشياء التي تشغل ما بعد الحداثة، فالإتّجاه الجنسي قد بدأ – كما أعلن "فيليب لاركين" (Philip Larkin) الشّاعر، والرّوائي البريطاني- في السّتينات وبعد أن هَمدتْ جذْوة الطّاقات الثّوريّة

[1] ينظر: بيير بورديو، جان كلود باسرون، إعادة الإنتاج، ص55 – 56.

[2] ينظر: ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يقوت، المركز الثقافي العربي، لبنان – بيروت، المغرب- الدار البيضاء الطبعة الثانية، 1987، ص47.

[3] ينظر: حسن المصدق، البيولوجيا السياسية بين سلطة المعرفة ومعرفة السلطة(1): تقنيات السيطرة على الجسد في أعمال ميشيل فوكو الفلسفية، صحيفة العرب، 26 جويلية 2007.

[4] ينظر: ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة، ترجمة: علي مقلد، مراجعة وتقديم: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي بيروت 1990، ص 36- 37- 159.

[5] ينظر: تيري إيجلتون، أوهام ما بعد الحداثة، ترجمة: منى سلام، مراجعة: سمير سرحان، مركز اللغات والترجمة، أكاديمية الفنون، مصر ،1996، ص123.

[6] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص118.

[7] ينظر: بيير بورديو، جان كلود باسرون، إعادة الإنتاج، ص124- 135- 136-147.

حلّ محلّها الإهتمام بالجسد، ويُضيف "إيجلتون" عن فكرة كون الجسد مفعول به (objet) أنّها الخاصيّة التي تميّز أيّ شيء أكثر إبداعا، فلو أنّك لم تفعلْ بي شيئا لما كان هناك مجال للحديث عن أيّة علاقة متبادلة بيننا.[1] تُثبت ما سبق الدّراسة الميدانيّة للمجتمع القبائلي التي قام بها "بورديو" الذي أسّس البنية الفكريّة الثّقافيّة على الجسد والفعل الجنسي التي تحيل إلى مركزيّة هذين الأخيرين .

ولمّا يتحدّث "فوكو" عن عمليّة تحيين المعارف المتجسّدة في الأجساد، لا يذكر لنا كيفيّة تجسّدها في حين أنّ "بورديو" وظّف مفهوم "الاستعداد" ليشرح ذلك، ومن خلال ملاحظة الهيمنة عند "فوكو"، نجد أنّ المهيمن يبقى مهيمنا والمهيمن عليه مغلوب عليه في حين أنّ هناك إمكانيّة تغيير المواقع من خلال امتلاك مقدار معيّن من الرّأسمال الرّمزي المتحوّل عن الرّأسمال الاقتصادي وبالرّغم من بعض الاختلافات – التي نقول عنها طفيفة- بين "فوكو" و"بورديو" لا ننسى فضل الأوّل على الثّاني وإن كان "بورديو" أكثر تفصيلا- أو إذا وظّفنا ما قاله في بداية الفصل- فقد واصل ودقّق فيما تعرّض له السّابقون.

وقبل أن ننهي بحثنا لا بأس من التّعرّض إلى نقطة أخيرة في مسألة مهمّة اتّسم بها فكر ما بعد الحداثة المتمثّلة في فكرة غياب الغائيّة، "فبورديو" من المفكّرين الّذين يرون غياب الغاية النّهائيّة عكس ما فعلته الماركسيّة التي ترى أنّ المجتمعات (البروليتاريا) في كفاحها ضدّ البرجوازيّة ستؤول حتما إلى مرحلة رخاء (توفّر كلّ شيء) وعدم الاستغلال والمساواة، كتحوّل لما قالت المسيحيّة بأنّه سينتهي العالم بذهاب الأخيار إلى الجنّة وعقاب الأشرار، أمّا عند " بورديو" ليس هناك غاية نهائيّة للمسيرة الإنسانيّة، ببساطة، يفهم الفاعلون الاجتماعيّون اللّعب، ويتبنّوا كمّية كبيرة من المخطّطات العمليّة للإدراك والتّقدير، تعمل كأدوات بناء للواقع، مثل مبدأ رؤية، وتقسيم للكون الذي يتحرّكون فيه وهم لا يحتاجون وضع أهداف ممارساتهم كغايات، فهم ليسوا ذوات في مواجهة موضوع، هم مُنغرقون في شؤونهم وحاضرون لما سيأتي، وما سيُعمل، عمليّون (pragma) باليونانيّة، يتمتّعون بحسّ تلقائي (praxis) لا يطرحُ باعتباره موضوع تفكير أو إمكانيّة مستهدفة من خلال مشروع، بل مطبوعة في حاضر اللّعب.[2]

[1] ينظر: تيري إيجلتون، أوهام ما بعد الحداثة، ص 119.

[2] ينظر: ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ص180.

كخلاصة لبحثنا نقول تمكّن "بورديو" من معالجة مفهوم الهيمنة من زوايا عديدة اجتماعية منها واقتصاديّة من خلال توظيف مفاهيم عديدة لم يتمكّن ربّما الذين سبقوه من معالجته بهذه الدّقة والتّفصيل مثل مفهوم الهابتوس، والحقل، والطّبقة، والرّأسمال وغيرها من المفاهيم التي توسّع في توظيفها، الشيء الذي سيمكّننا من فهم سلوك الإنسان في المجتمع ومدى تأثير الثقافة التي غدت تتحكّم في سلوكه وتفكيره، وربّما يمكّننا ذلك من الوصول إلى الحقيقة من خلال فهمنا لطريقة اشتغال هذه الأدوات، وكيف يستغلّها المهيمن للسّيطرة على المهيمن عليه الذي بدوره يساهم في ذلك ليقع حبيس الدّائرة المغلقة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أيزابرجر آرثر، النقد الثّقافي: تمهيد مبدئي في المفاهيم الرّئيسيّة، ترجمة: وفاء إبراهيم، رمضان يسطاويسى المجلس الأعلى للثّقافة القاهرة، الطبعة الأولى، 2003.

2. أيزابرجر آرثر، النقد الثّقافي: تمهيد مبدئي في المفاهيم الرّئيسيّة، ترجمة: وفاء إبراهيم، رمضان يسطاويسى المجلس الأعلى للثّقافة القاهرة، الطبعة الأولى، 2003.

3. ايكه هولتكرانس، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، ترجمة: محمد الجوهري، حسن الشّامي، دار المعارف، الطبعة الأولى الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الثانية، مصر، 1972.

4. بودريار جان، المصطنع والاصطناع، ترجمة: جوزيف عبد الله، مراجعة: سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة بيروت- لبنان، الطبعة الأولى 2008.

5. بورديو بيير، الهيمنة الذّكورية، ترجمة: سليمان القعراني، مراجعة: ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 2009 .

6. بورديو بيير، بعبارة أخرى، ترجمة: أحمد حسّان، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، الطبعة الأولى، 2002 .

7. بورديو بيير، جان كلود باسرون، إعادة الإنتاج، ترجمة: ماهر تريمش، المنظّمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2007.

8. بيير بورديو، مسائل في علم الاجتماع، ترجمة: هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للسّياحة والثقافة "كلمة"، أبو ظبي، 2011.

9. تيري إيجلتون، أوهام ما بعد الحداثة، ترجمة: منى سلام، مراجعة: سمير سرحان، مركز اللغات والترجمة، أكاديمية الفنون، مصر،1996.

10. جون ستروك، البنيوية وما بعدها: من ليفي شتراوس إلى دريدا، ترجمة: محمد عصفور، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والأدب الكويت 1996.

11. جون سكوت، خمسون عالما اجتماعيا أساسيا: المنظرون المعاصرون، ترجمة: محمود محمد حلي مراجعة: جبور سمعان الشبكة العربية لأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 2009.

12. الحرب علي، أصنام النّظرية وأطياف الحرية: نقد بورديو وتشومسكي، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الأولى، 2001.

13. ديورنغ سايمون، الدّراسات الثّقافية: مقدّمة نقدية، ترجمة: ممدوح يوسف عمران، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت 2015.

14. ريكور بول، الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة بيروت- لبنان، الطبعة الأولى،2005.

15. ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، معجم بورديو، ترجمة: الزهرة إبراهيم، الشركة الجزائرية السّورية للنشر والتوزيع (دار النّاية دمشق و دار الدزاير، الجزائر) الطبعة الأولى، 2013.

16. السّحيري بن حتيرة صوفية، الجسد والمجتمع، دار محمد علي، تونس، الطبعة الأولى، 2008.

17. عبد الرحمن بدوي، خلاصة الفكر الأوربي: سلسلة الفلاسفة (نيتشه)، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الخامسة، 1975.

18. عبدالعزيز، معجم علم النفس والتربية،ج1، إعداد: فؤاد أبو حطب، محمد سيف الدين فهمي، تنفيذ: سعد الحرب المطابع الأميرية مصر، 1974.

19. فوكو ميشيل، المراقبة والمعاقبة، ترجمة: علي مقلد، مراجعة وتقديم: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي بيروت، 1990.

20. ماريشان جوردون، موسوعة علم الاجتماع، المجلد الأول، ترجمة: محمد الجوهري، هناء الجوهري وآخرون، مراجعة وتقديم: محمد الجوهري، المجلس الأعلى للثقافة الطبعة الثانية، 2007.

21. المصدق حسن، البيولوجيا السياسية بين سلطة المعرفة ومعرفة السلطة(1): تقنيات السيطرة على الجسد في أعمال ميشيل فوكو الفلسفية، صحيفة العرب، 26 جويلية 2007.

22. ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يقوت، المركز الثقافي العربي، لبنان – بيروت، المغرب- الدار البيضاء الطبعة الثانية، 1987.

23. نيتشه فريدريك، هذا هو الإنسان، ترجمة: علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت، 2006.

24. Gustave Nicholas Ficher, la psychologie sociale, édition le Seuil, Paris, 1997.

25. Michel Théron, comprendre la culture générale, édition Marketing éditeur des préparations de grandes écoles médecines, Paris, 1991.

26. Patrice Bonnewitz, Pierre Bourdieu, vie, œuvres, concepts, 2ème édition, Ellipses ,Paris 2002,.

27. Pierre Bourdieu, choses dites, collection « le sens commun » édition de Minuit, Paris, 1987.

28. Pierre Bourdieu, esquisse d'une théorie de la pratique, édition le Seuil, Paris, 2000 .

29. Pierre Bourdieu, langage et pouvoir symbolique, édition le Seuil, Paris, 2001.

30. Pierre Bourdieu, le sens pratique, les éditions de minuit, Paris, 1980.

31. Pierre Bourdieu, Méditations pascaliennes, collection « Liber », édition du seuil, 1997.

32. Pierre Bourdieu, question de sociologie, collection le sens pratique, édition de Minuit, Paris, 1980.

33. Pierre Burnbaum, François Chazel, théorie sociologique, presse universitaire de France, Paris, 1ér édition, 1975.